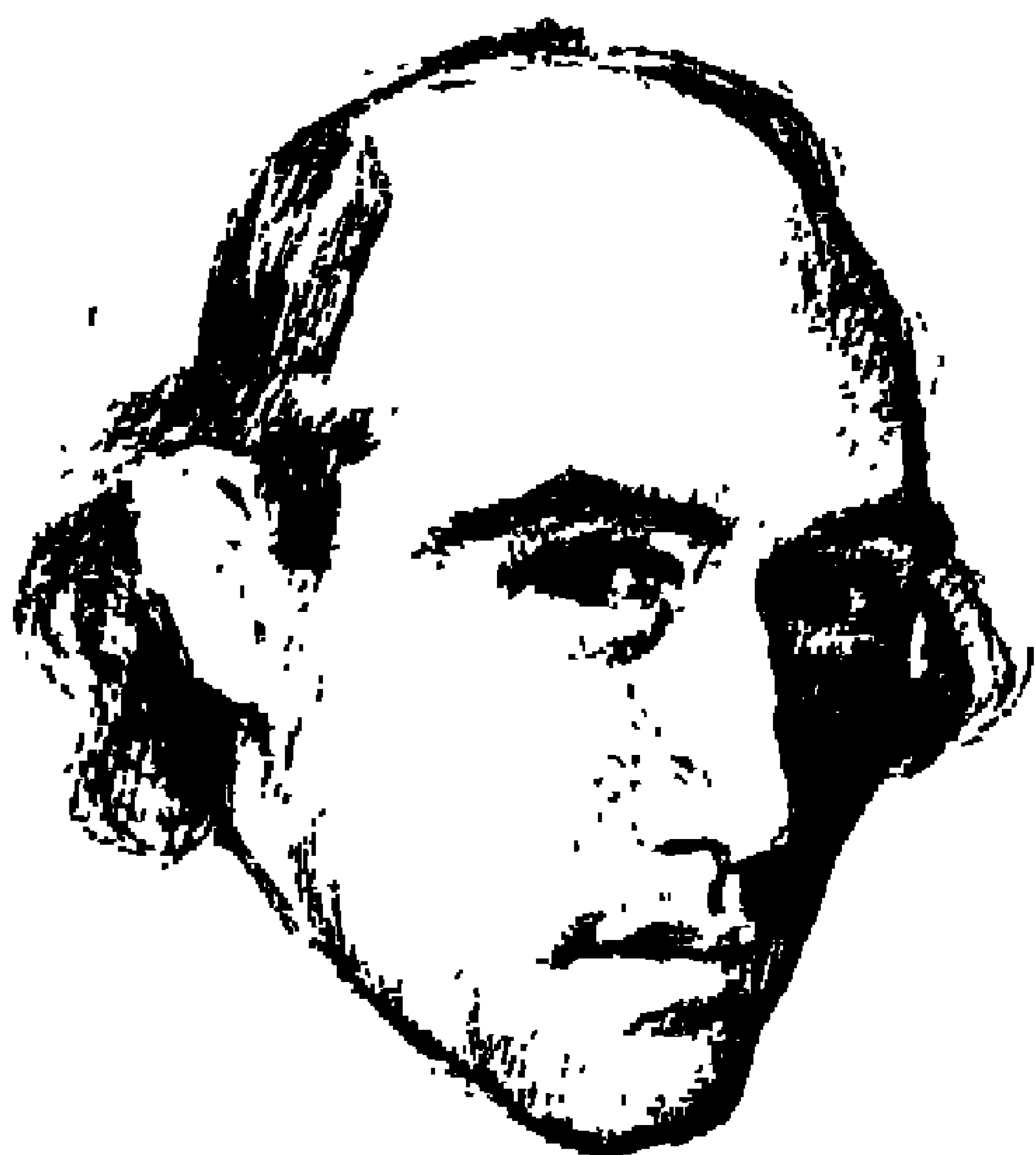


سلسلة أعلام الفكر العربي



أندريه جيد

ترجمة
مجاهد عبد المنعم

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تأليف
ج. و. ايڤرلاند

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

Gide

By

G. W. Ireland

وقد ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٩٦٣

سلسلة أعلام الفكر العربي

أندريش

تأليف
ج. و. إيرلاند

ترجمة
مجاهد عبد المنعم

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت - دمشق - القاهرة - الكويت - جدة - الرياض
الطبعة الأولى: ١٩٨٠ - الطبعة الثانية: ١٩٨١
مكتبة - انتاج

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

كانون أول / ديسمبر / ١٩٧٥

المُصَلِّ الأَوَّل

مدخل

ولد أندريه - بول جيلوم جيد في باريس يوم ٢٢ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٨٦٩ وكان أبوه بول جيد محاميا بارزا من « سيفين » وأمه جوليت روندو هي ابنة أسرة نورماندية ثرية تشتغل بالصناعة .

وكان كلا والديه من البروتستانت : غير أن بروتستانتية أسرة والدته حديثة الأصل بشكل كبير حتى أن الأسرة كانت لا تزال تحتفظ ببعض الصلات بالكاثوليكية لدرجة أن جيد تمكن فيما بعد من أن يصف نفسه بأنه ولد من « إيمانين » كما ولد من جنسين ومن اقليمين وبين نجمين .

وكان جيد وهو صبي مفرم للغاية بأبيه الذي كان رقيقا لطيفا وودودا ولو بعد هذا قليلا عن معايير اليوم ، وقد بث في ابنه مبكرا حبه للأدب الجميل وخاصة وهو يقرأ له الأعمال الشامخة بصوت مرتفع .

وعلى أية حال ، مات بول جيد عام ١٨٨٠ ولم يكن

ابنه قد تجاوز الحادية عشرة ، ولهذا تربى جيد على يدي
أمه وصديقتها « أنا شاكتون » .

كانت « أنا » ، وهي من أصل اسكتلندي ، في البداية
مربية جوليت روندو ، ثم أصبحت فيما بعد رفيقتها
وصديقة عمرها الحميمة . وكانت تبدو كامراة تدعو الى
الاعجاب . ومن المؤكد أن جيد يتحدث عنها دائما باعجاب
وحب . ويرجع الامر الى حد كبير الى تأثيرها . أن جيد
نمى في نفسه وهو طفل محبة للعلوم الطبيعية التي ستلعب
دورا كبيرا في تفكيره وفنه .

وكانت أمه امرأة تتميز بطابع معقول وفضيلة لا يرقى
اليها الشك . غير أنها كانت متزمتة وضيقة الافق حتى
أن المرء ليعجب ما اذا كانت أضرت ابنها أكثر مما أفادته .
فلم يكن مسموحا له بالمرّة - مثلا - أن يحضر حفلا موسيقيا
يعزف فيه روبنشتين موسيقى شوبان ، لأن والدته كانت
تعد موسيقى شوبان « غير صحيحة » . بل لقد اقتضى
الامر تدخلا مليئا بالشفقة من ابنة عم أكبر سنا لكي يسمح
للولد النامي بقدر من دخول مكتبة أبيه .

كان جيد يكن اعمق احترام لأمه ، ولكن لم يكن هناك
دفع وتلقائية في علاقتهما بسبب معاييرها الصارمة ومزاجها
المتشدد . وبالرغم من كل المحبة والاعجاب اللذين تتحلى بهما
فإنها كانت تبتعث أيضا شعورا بالاستياء لم يكن جيد

يخفيه دائما (١) .

وبعد تعليم أولي مشئت وغير منظم على يد مربين غير مؤهلين الى حد كبير ، التحق بمدرسة « الزاسيين » وهي مؤسسة بروتستنتانية مشهورة في باريس . ولكن سلسلة من الاضطرابات النفسية والعصبية التي عيده الاستمناء اكبر تجل واضح لها ، أدت الى استبعاده من المدرسة لفترات طويلة لاكثر من مرة بينما طافت به أمه وجه فرنسا بحثا عن « علاجات » مختلفة له .

وبالرغم من معارضة أم جيد الصارمة ، كان لديه عزم من ذي قبل لكي يصبح كاتباً ، ولم يكتف بير لويس (الذي أصبح فيما بعد « لويز ») الذي التقى به بمدرسة الزاسيين بتشجيعه في هذا الطموح ، بل وجد أيضاً الوسيلة لتقديمه الى الحياة الأدبية في باريس وبصفة خاصة الى مالارميه (٢) . وكان بير لويس هو أيضاً الشخص الذي قدم أول كتاب لجيد الى الجمهور (٣) ومن ثم قذف به على طريقه الأدبي .

وعندما كان جيد في الخامسة والعشرين من عمره

(١) انظر « لو لم تمت البذرة » ص ٦٠٧ وما بعدها .

(٢) يعتمد « العرض » الحالي على بارثر . انظر ديلاي : « شباب

اندريه جيد » باريس ١٩٥٨ ، المجلد الثاني ص ٣٧ .

(٣) انظر : أول الفصل التالي .

ماتت أمه وقد تركت له ثروة لا بأس بها . وقد انتهى ارتباطه الدائم بابنة عمه مادلين في أكتوبر (تشرين الاول) ١٨٩٥ بعد خمسة أشهر من وفاة والدته بزواجهما . ولم يكن هناك شيء ملائم يفوق هذا بالرغم من أن مادلين نفسها قد قاومت فكرة الزواج عدة سنوات . ولكن حقائق الموقف كانت أي شيء سوى السعادة والفرح .

فقبل هذا بعامين خلال رحلة الى شمال افريقيا ، اكتشف جيد في نفسه رغبات جنسية مثلية واستسلم لها . واثبات الزواج أمل - دون شك - كما فهم - أن يحمل له الزواج نوعا من « العلاج » ، أو ربما قد يكون الزواج القابل للنمو والتطور ممكنا مع قدر كاف من الحب والفهم من الطرفين حتى مع عدم وجود مثل هذا العلاج . لكن الزواج الذي دام أربعين عاما برهن له يوما بعد يوم كم كان مخطئا . وبالرغم من كتاب جان شلومبرجر الممتع (٤) لا بد من كلمة عادلة عن تاريخ هذا الزواج . لم يكن هناك نقص في الحب ، ان الإعجاب والرقّة متوافران من كلا الطرفين . غير أن الهوة بين الزوج وزوجته كانت أوسع من إمكان اجتيازها . ولم تكن الجنسية المثلية عند جيد هي العامل الوحيد المدرج هنا ، بالرغم من أنه كان السبب الأكبر لهذه الهوة . وان قصة حياته حتى وفاة مادلين في أبريل (نيسان) ١٩٣٨ هي الى

(٤) جان شلومبرجر : «مادلين واندريه جيد » وجوهما المختلفة

باريس ١٩٥٦ .

حد كبير قصة تفتح نادر لعبقرية خلفيتها مأساة خاصة
حيث ان ولادة ابنة جيد كاترين لابنتها اليزابيث فان
ريزلبرغ تبدو شاذة بشكل يدعو الى الحزن .

وتتشكل بقية الحياة من تجوال لا يهدأ عبر كل أوروبا
وأفريقيا وهو يعمل من أجل اللاجئين في الحرب العالمية
الاولى ، وخلال وبعد الحرب الاهلية الاسبانية وانضمامه
للسيوعيين لفترة وجيزة .

وفي عام ١٩٢٥ زار الكونفو حيث روعته القسوة التي
تستغل بها الشركات صاحبة الامتيازات ، الوطنيين ، وهو
يندد في كتابه « رحلة الى الكونفو » بهذه المساوئ ووافضى
الامر الى ارسال بعثة لتقصي الحقائق أوجدت شيئا من
الاصلاح .

وخلال فترة شهر العسل مع الشيوعيين ، ترأس
اجتماعات ، وألقى خطبا في مؤتمرات ، ووقع بيانات ، وبعث
بتحياته الى المؤتمر الاول للكتاب السوفييت وما الى ذلك .
بل حتى لقد ذهب مع مالرو الى برلين ليحتج لدى جوبلن
ضد اعتقال ديمتروف ورفاقه الذين برؤوا في محاكمة حريق
الرايخستاغ . وقد قطع علاقته بالشيوعية بعد الرحلة الى
الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٣٦ .

امضى جيد (الذي بلغ السبعين في عام ١٩٣٩) معظم
الحرب العالمية الثانية في شمال افريقيا كمتفرج غير متحيزا

ان لم يكن كمتفرج لا يهتم . وبعد الحزب عاد الى باريس
حيث امضى آخر سني عمره .

وفي عام ١٩٤٧ حصل على جائزة نوبل في الادب .
ومات جيد في باريس يوم ١٩ فبراير (شباط) عام ١٩٥١
ودفن بعد ثلاثة ايام في كوفر فيل .

الفصل الثاني

أندريه والتر

في أوائل كتاب جيد الاول نجد وضعاً نمطياً يدل على الرجل ، وهو محوري لكل أعماله ، حتى أنها تشد انتباهنا منذ البداية . ونجد عرضاً غير مباشر لهذا الوضع حتى أنه يعد شيئاً مميزاً . لقد نشر كتاب « مذكرات أندريه والتر » (١) على أن مؤلفه مجهول عام ١٨٩١ وقدم الكتاب على أنه مؤلف منشور بعد وفاة صاحبه وتتصدره مقدمة موقعة باسم « ب . ك » أي « بير كريسيس » وهو مرادف لاسم بير لويس (عرف فيما بعد باسم لويز) صديق جيد الحميم من أيام التلمذة . وإذا لم تكن هذه المقدمة بقلم جيد فمن السلامة أن نفترض أنها مستلهمة بشكل مباشر منه وأنه قد وافق عليها . وفي هذه المقدمة يحكى « ب . ك . » كيف أن ذلك المؤلف « يتحدث أحياناً عن كتاب يعتزم تأليفه:

(١) بالنسبة لدلالة الاسم انظر كتاب جورج بينتر «أندريه جيد»

عمل غريب (علمي وعاطفي) هكذا قال . (٢) .

هذا الوصف مليء بالمفارقة أو التناقض الظاهري .
فكلمة « علمي » تعني التنزه عن الغرض . بالطبع قد يكون
المرء مكرسا للعلم غير أن هذا التكريس ليس علميا . والمفارقة
واضحة بقدر ما هي مقصودة .

وعلى أية حال ، طالما انه لا شيء كامن في حل هذا
الانفراق أكثر من التوفيق بين حب التشريح أو البيولوجيا ،
وحب الموسيقى أو الشعر فان الامر لا يحتاج الى توتر كبير .
فكل صبا جيد شاهد على هذا . غير أن مؤلف « مذكرات
أندريه والتر » اليافع كان عليه أن يواجه هذا الانفراق في
داخل سياق أكثر اضطرابا : الهوة بين الروح والجسد .

في البداية يلوح جيد انه يكتب مثل أي مراهق آخر -
إذا أغضينا الطرف لحظة عن صفة الكتابة ونوعها - ان
الطريقة غير ناضجة ، والمادة مبتدلة ، والخليط البسيط
للافكار « العلمية » الفامضة لا تضيف سوى انطباع بان
الانسان على أرض اليقة .

« بالطبع ، عندما يحلم الانسان بما يفعله الشعر . . . »
أكم تشابه الرغبات ! والأعصاب التي تهتز في سحر الألوان .
يتسبب في قليل من التدفق المتناثر في الوجود . . آه !

(٢) لاحظ في « مذكرات أندريه والتر » الجزء الاول ص ١٧ من

المقدمة .

يا للنثر ! يا للنثر البديع المنطوي خلف كل هذا . . . » (٣)

ان اندريه والتر مثل الكثيرين من المراهقين يفكر في كتابة رواية ، وفي هذه الرواية التي ستسمى باسم «آلان» فان الهوة بين الروح والجسد تبدو لأول وهلة وقد تصورناها في اطار ساذج وغير أصيل ، كصراع بين النفس التي هي نبيلة تماما والجسم الذي هو منحط بتمامه . وعلى أية حال ، في الحقيقة لا يوجد أي نقص سواء بالنسبة للتركيب الفني أو الاصاله حتى في هذا العمل المبكر للغاية . هناك شيء واحد : المشكلة برمتها التي يواجهها المراهق من جراء الهوة التي نتحدث عنها ، يجري تصويرها لا في اطار المعتقد أو السلوك ، بل في اطار الادب . حتى العلاقة بين المادية والمثالية لها أهمية أولية لأنها تجعل الادب ممكنا . المشكلة في قلب « مذكرات اندريه والتر » هي مشكلة فنان : تأليف كتاب . ان المؤلف يقدم لنا لا على انه شخص يبحث عن مواصلة حياة يختلط فيها العلم والعاطفة ، بل على انه شخص يسعى الى تأليف كتاب يتصالح فيه العلم والعاطفة .

والصور التي تترى بشكل تلقائي امامه وهو يتصارع مع انفراق الجنسية لدى المراهق هي صور أدبية : « أي (نثر) مبتذل منطوي خلف كل هذا » ، « الزهرة » ، هي (الشعر) الرائع للنبات » ، وأول اسم يطرا على باله وهو يتحدث عن الفعل المنعكس هو اسم « موسيه » .

(٣) مذكرات اندريه والتر ص ٤٤ - ٤٥ .

ولو كان كل انشغاله بالادب مجرد احياء للنزعة البارناسية
أو عينة خاصة من الجمالية الواعية للعصر الزاهي لكان امرا
قليل القيمة ، لكن الامر أبعد من هذا . ليس الامر فنا
للفن : انه فن للحقيقة . ان على أسلوبه ان يتشكل لا وفق
الاعتبارات الجمالية التي تقدم معاييرها بل وفق اهتمام
بالحقيقة . الاسلوب ليس شيئا ذاتيا آليا : ان للفكر اشكاله
ان الفنان سوف يستشعر (كشكل) حركة افكاره ومشاعره ،
وايقاع جملة لن يشبعه الا وهو يشعر « بأنه متوج ، فيما
عدا منحني الافكار الموقعة ، عن طريق علاقة ثانوية » (٤) .
واللافت للنظر اكثر : الحقيقة التي يجب أن يخدمها الفن
ليست هي الحقيقة الذاتية للعاطفة باعتبارها انكشافا خاصا
للقلب له مزاياه بالتالي . ان مراقبنا لا يبحث عن نموذج في
الشعراء أو الروائيين الرومانسيين : انه يبحث عنه في
اسبينوزا !

لقد أدرج اسبينوزا حجة الاخلاقية بالشكل الدقيق
الذي تتصف به النظريات الهندسية . وبالتر يشعر بأن مثل
هذه الدقة والوضوح يجب أن يخصا الروائي بشكل اكبر مما
يخصا الفيلسوف :

« ان الرواية نظرية » (٥) .

(٤) مذكرات اندريه والتر ص ٦٦ .

(٥) مذكرات أندريه والتر ص ٦٥ .

وبالطريقة عينها ، اذا كان أندريه والتر لا يندد بالمثالية،
فانه لا يبتعث شخصا شاعريا غير « تين » حتى يساعده هذا
على تحديد هذه المثالية ويتوصل الى نتيجة هي ان العمل
من الاعمال المثالية هو - كما قال - « برهنة » (٦) .

ان أندريه والتر ، بخليط فعال من جيشان الشباب
والنورانية الرياضية ، يصف روايته المفترضة . كل شيء يجب
أن يترد الى ما هو جوهري . يجب أن توجد شخصية واحدة،
وكل الاحداث يجب ان تقع في ذهنه خارج الزمان والمكان .
والقوى المتصارعة يجب أن تكون متناقضة أكثر منها
متعادية : الروح والجسد . ان صراعهما الذي يجب أن يكون
(مثاليا) - بالمعنى الدقيق الذي يحدده والتر للكلمة -
يجب أن يستلهم ويحظى بصفته الدرامية من جراء عاطفة
مهيمنة وموحدة واحدة : « العمل الفاضل » (٧) . والوصف
الذي يدلى به والتر عن « آلان » لا ينطبق انطباقا تاما على
أي عمل كتبه أندريه جيد بعد هذا : ولكن بالرغم من هذا ،
يفجر بقوة وجلاء مذهلين عددا من المبادئ الفنية الرئيسية
التي لم يتخل عنها جيد بعد هذا اطلاقا .

ان فكرة وجود صرامة رياضية مثالية تتضمن اكبر
غنائية تعطي وتوجه تدفقها ، ظلت مسألة مصاحبة لجيد

(٦) مذكرات أندريه والتر ص ٩٤ .

(٧) مذكرات أندريه والتر ص ٩٥ .

طوال حياته الابداعية ، وتقدم لنا أكبر خصيصة تميز أجمل أعماله .

ان كتاب « مذكرات أندريه والتر » كثيرا ما أبخس بحقه . لا يمكن مقارنته بالاستاذية الفنية مع أعمال كتبها جيد في سن النضج ، ولا يمكن انكار الهفوات العرضية في النغمة من الناحية الميلودرامية أو العاطفية المفرطة أو حتى الجياشة بالعاطفة . ولكن الكتاب دون شك هو عمل من أعمال العبقرية . لا يكاد يوجد أي موضوع لدى جيد الناضج ليس موجودا من قبل في كتاب « مذكرات أندريه والتر » ، وتضمنات الثنائية المحورية بين الروح والجسد لا يجري تقديرها مسبقا على نحو ساذج بالمرّة . من الحق أنه في مذكرات أندريه والتر الى « آلان » نجد أن المقدمات التي يقوم عليها هذا العمل مدرجة بشكل ساذج . ولكن جيد - حتى في هذه المرحلة - ليس على الإطلاق ذا هدف مفرد على نحو مؤلف « آلان » . وان القاء نظرة على « مذكرات أندريه والتر » ستكون كافية لتبيان أن الموقف ليس جليا تماما كما يبدو في البداية لوالتر .

يمكن القول بشكل عام ان الكتاب يتخذ شكل يوميات شخصية حيث تحكي قصة حب دنيوي تسير في توازن مع تاريخ روحي ، وفيها تقص علينا في الوقت نفسه رواية يعثرم مؤلف اليوميات أن يكتبها . والحدث الرئيسي كان قد بدأ من قبل عندما تبدأ المذكرات ، وبعد وفاة أم أندريه والتس وزواج حبيبة طفولته ايمانويل يقبع وحيدا . وفي هذه

الوحدة يكتب ليخلص نفسه من ماض لا يزال يخيم عليه، وهذا الماضي مليء بالحب الرومانسي الذي عاشه في طفولته مع ايمانويل . غير أن الحب الذي يستشعره ازاء ايمانويل مختلط ومشوش بحب الله ، حيث شجعتة ودعمته ايمانويل المتدنية بعمق . والنتيجة انفعال لم يشعر مثله كاتب في عصرنا يمثل هذا العمق الداخلي أو صورته على هذا النحو الفائق :

« الحب الورع ، الحب لها تلك التي كثيرا ما تثق بكلا الاثنين ، في كل مرة تدخلهما هما الاثنين في رباط دائم » (٨) .

وفي الوقت نفسه فان استخدام مصطلح شبه رياضي « رباط دائم » في مثل هذا السياق يفضح بصيرة واضحة وراء فرط السرور الذي يوحى بشيء آخر أكثر من الوجه الصادق . ان نعمة السحر الأسر قوية : ولكن ظل الاحتفاظ بنوع من التناسب ، وجرى توضيح أن ما يبقى ويسود هو الحب الدنيوي . ان ايمانويل من جانبها لم يعمها الحب وهي تصر على أن على أندريه أن يتعلم حب الله لذاته ، لا أن يبحث عن حب الله فيها . وهو يعدها بشجاعة :

« سوف أتوقف عن مواصلة حبك ... نحن سوف نتقدم بشكل (متواز) » (٩) (من المستحيل الا نلاحظ

(٨) مذكرات أندريه والتر ص ١٠٩ .

(٩) مذكرات أندريه والتر ص ٨٠ .

المصطلح الرياضي : فقد كتبه جيد داخل اقواس . فهل من الممكن ألا نستشعر وعي المؤلف « بنظرية » وراء توقده ؟ .

ولكن بعد زواج ايمانويل ، وانعزاله داخل نفسه وحتى بعد ادراكه جوهر الامور الذي هو قسم :

« ... انني لا اعرف أي شخص ... » (سوى الجسد » (١٠) . فانه داع بالفعل بأن الصراع بين الجسد والنفس لم يحل على الاطلاق . ان الوحدة ليست ملجأ :

« ان العدو في داخلنا : انه الرعب » (١١) .

اذن داخلنا يكمن عدو علينا أن نتغلب عليه . ولاول وهلة تبدو المسألة واضحة . لما كانت النفس نبيلة والجسد منحطاً ، فان النفس يجب أن تتغلب على الجسد ، والا فان الجسد سيحط من شأن الروح ويستعبد لها .

وعلى أية حال ، عند هذه النقطة يتسلل شك الى عقل والتر المحض :

« وعلى أية حال ، أحب ان أعرف ما اذا كان الجسد يستثير الروح أم ان الروح هي التي تستحثه ، ولكي يصارع في النهاية : أي الاثنين يجب ان يأخذ به أولاً ؟ » (١٢)

(١٠) مذكرات أندريه والتر ص ٩٠ .

(١١) مذكرات أندريه والتر ص ١٢٨ .

(١٢) مذكرات أندريه والتر ص ١١٠ .

هذه العبارة حاسمة تماما . وعلى هذا الاساس
الفاصل يتخذ والتر وضعه بحذر . وهو يبدأ بشكل واقعي
يتجلى عن الاساس الذي لم يعد متأكدا انه يمسك به .

ان هدف تجمع النفوس وهم ، وهو وهم خطر للغاية .
« ولكي تختلط نفسي بنفسك ، يجب أن أتخلى عن
فكرة الحياة المقاومة ، الوعي بالنفس » (١٣) .

هذا التيقن يعذب والتر . والشعور بالانفصال الذي
يحسه كشيء مادي حتى عندما يشير الى انفصال للنفوس
لا يكاد المرء أن يحتمله . ويبدو انه يصعب أن يتقبل حتميته .
ومع هذا فان هذا السعي نحو المثال الوهمي أمر عزيز ، وهو
يتضمن شرطا لا يستطيع أن يتقبله مؤلف « مذكرات اندريه
والتر » : النفس تصبح اذن سلبية .

وان كون هذا لا يستشعر به دوما على انه غير مرغوب
فيه واضح بقدر ما أنه ذو دلالة . وفي الحقيقة نجد ان
الوضع العكسي مائل بالقوة نفسها :

« أجل ! ولكن عندما تعرف ، تمتلك كثيرا من العقل
من أجل المعرفة ... »

« اننا نصبح مغمورين في السعادة اللانهائية دون كثير
من تلك (المقاومة الاليمة للنفس) التي نستطيع أن نستشعرها

(١٣) مذكرات اندريه والتر ص ٧٣ .

وحدها « (١٤) .

غير أن هذه الفقرة نفسها تواصل القول مباشرة :
« البديل : نيرفانا متلافة ، حيث تصبح (النفس)
كلها مغرمة ومندفعة في الوجد وترعى الإرادة الخاصة بالضمير
لتلاشيها ، ويبدو الأمر كما لو أمكن أن يصبح العدم مدركا
بتلذذ » . وبمجرد أن تبتعث رؤية استسلام النفس -
باشتياق شديد - حتى يبدو أن من الخطر تجنبها بأي ثمن .
وهذا لا يعني الحيلولة بينها وبين الحدوث . وكما كتب
بودلير :

« بصدد تبخر النفس وتركزها .

يكن كل شيء في هذا » (١٥) .

أن كلا الاتجاهين يواجه كل منهما الآخر طوال حياة
جيد الروحية ويقدمان أطروحة من الأطروحات السائدة
لحياته وعمله .

ولكن كان أمام أندريه والتر قرار عليه أن يتخذه ، وهو
يتخذه بعون من شوبنهاور . فقد قرأ عبارة من عبارات
شوبنهاور : « أن من يعرف الكل ولا يعرفه أحد هو

(١٤) مذكرات أندريه والتر ص ١٥٠ (الاقواس من هندي أنا

المؤلف) .

(١٥) المؤلفات الكاملة ، المجلد الثاني ص ٦٤٢ .

(الموضوع) . انه لهذا أساس العالم « ومن ثم لم يستطع والتر أن يسيطر على حماسته . وفي الحقيقة يأتي هذا كعون مائل في مأزقه لانه اذا لم يستطع أن يقنع بفقد نفسه في محبوبة فانه يوحى له بإمكانية الاجراء العكسي : استيعاب المحبوب كلية داخله .

« اذا كففت عن حبي لك ، ستكفين عن الحياة ... »
طالما ان حبه غير المتجسد لمانويل يرضيه فان الحل يبدو بسيطاً :

« يجب أن أحبك دونما انقطاع » (١٦) .

غير ان هذا الحب قد أصبح الآن مسألة من مسائل الارادة . وسرعان ما أصبح واضحاً ان الحب يجري التمسك به من أجل ممارسة الارادة أكثر من ممارسة الارادة من أجل التمسك بالحب .

« ان النفس فعالة ، وهي مرغوبة ، وهي تجد سعادتها ، لا في السعادة نفسها ، ولكن داخل الشعور بفعالياتها المريدة » (١٧) .

ان الوضع وضع بطولي ، حيث انه محاط بمخاطر مرعبة :

(١٦) مذكرات اندريه والتر ص ١٦٦ .

(١٧) مذكرات اندريه والتر ص ٢٦ .

« لا يجب الخوف من الضعف والا سقطت كلية (١٨) .
وقد يعتزم اندريه والتر أن يتقبل كل نتائج قراره
البطولي :

بفضل قوة الإرادة لا يجب إطلاقا التوقف عن حب مثاله
والحفاظ على وجود هذا المثال : غير أن هناك يدا أكثر
براعة هي التي تقود القلم الذي يكتب :

« اذا توصلت الى تأمل الوهم الذي به اثبت حتى
تستجلي عيناه السراب ولا تحل محله الوقائع الصلبة ، فان
الوهم المخترع يبدو لي حقيقيا ، وما يلوح صورة مستحضرة
سابقا ، تلوح لي حاضرة دوما بل انها تفوق الحقائق » (١٩) .

فهل من المستحيل قراءة هذه الاسطر بدون الشعور
بأن الوضع لم يعد قابلا أن يدافع عنه المرء ؟

ان ثمن العزلة العقلية غال للغاية . ويجن اندريه والتر
ويموت . وجيد - مثل الثعبان - قد غير جلده الاول .

(١٨) مذكرات اندريه والتر ص ١٥١ .

(١٩) مذكرات اندريه والتر ص ١١٤ .

الفصل الثالث

المباهج الديويية

تبع نشر « مذكرات أندريه والتر » عدد من الاعمال - وان كانت اكثر خفة في المحتوى واقل عاطفية في نغمتها عن الاعمال السابقة - تظهر استاذية نامية سريعة في تنظير وممارسة فن الكاتب . والكتابات شبه النظرية او الرسائل - حسب التعبير الذي أطلقه جيد عليها - وهو تعبير ملائم على نحو غريب لهذه الاجزاء الخفيفة - هي « رسالة عن نرجس » (١٨٩١) « محاولة في العشق » (١٨٩٣) و « الحاج » (١٨٩٩) - انما تصاحب بالاحرى او تمهد للروائع اكثر من ان تكون هي نفسها روائع في حد ذاتها . وهي في جوهرها تعليقات على تطور المؤلف اكثر من ان تكون تجسيدا لهذا التطور : غير ان اشراقها لدى هذا المؤلف الشاب امر يدعو الى الدهشة .

تنقسم الآراء بشأن « اشعار أندريه والتر » (١٨٩٢) . هي بالتأكيد ليست من الروائع بالرغم من ان أندريه جيد - الذي عادة لا تنقصه القسوة في الحكم على اعماله - ربما

أظهرها على أنها مناسبة في طبيعتها أكثر مما تستحق .
والرواية الذاتية « الرمزية » « رحلة الى أوربا » (١٨٩٣)
لا ينقصها ما يميزها : غير أن اتشغال المؤلف بالتجربة
الشكلية إنما يطمع غاياته الى حد كبير ، لأنه يجعل الكتاب
أكثر تفككا وضبابية عن حالة العقل الذي استلهمته .

ويتميز تحرر جيد - لا من الرمزية بل من الكهنوت
الرمزي - بظهور رائعته الاولى التي لا يمكن الشك فيها
الا وهي : « المستنقعات » (١٨٩٥) . ان هذا التهكم المرير
من عقم عبادة الكلمات عندما تنفصل عن الحياة إنما يحتوي
في الوقت نفسه على اعمق التعليقات على المسائل الجمالية
الموجودة في أعمال اخرى . ان المؤلف يعبر عن اشتياقه
للتحرر من الوسط الادبي الذي يختنق فيه في اطار رحلة
يضع خطة لها بصفة دائمة . وهو في هذا العمل لا يحقق الا
هربا ضئيلا يدعو الى الشفقة الى ضواحي باريس . في الحياة
الحقيقية ارتحل جيد الى ابعد من هذا . ففي اكتوبر
(تشرين الاول) ١٨٩٣ قام جيد بصحبة الرسام الشاب
بول البيرت لورنز بأول رحلاته الى افريقيا . وفي خلال
الرحلة مرض جيد مرضا خطيرا حتى ان معظم فترات الرحلة
ضاع في النقاهاة . وفي هذه الفترة اكتشف جيد الطبيعة
الحقة لجنسيته واستسلم لنوازعه الشاذة جنسيا لأول
مرة .

ويجري الحديث عن « المباهج الدنيوية » - التي

نشرت بعد عودة جيد من أفريقيا - كما لو كانت نوعا من عرض لمذهب اللذة ودعوة للحسية المطلقة العنان . ويصعب ايجاد وصف أقل ملاءمة .

وفي تصدير جديد كتب بعد ان نشر الكتاب لأول مرة بثلاثين عاما احتج جيد نفسه على سوء الفهم هذا . فيكاد يكون من المستحيل أن مثل قصر النظر هذا غير مقصود . أن ما يراه في الكتاب من ناحيته ليس تمجيذا للمباهج الجنسية بل بالاحرى ترنيمة للزهد الذاتي « اعتذار عن (المسغبة) » (١)

هذه اللذات المستثارة في « المباهج الدنيوية » لا تختلف في طبيعتها فحسب عن الاتباع التقليدي لمذهب اللذة : ان لها أصلا مختلفا وغاية مختلفة .

هذه الغاية واردة بوضوح في الصفحة الثانية من الكتاب الاول :

« نحن نخشى أنه يجب علينا تماما أن نكتشف الله ، ونحن لا نعرفه للأسف ونحن ننتظر أن نجده ، وعلينا أن نواجه تضرعنا . ثم يقول الانسان انه في كل مكان ، لم نولده ، وهو متعذر وجوده ويتم الخضوع له صدفة » (٢) .

وكما في « مذكرات اندريه والتر » لا يزال البحث هو

(١) مقدمة الى طبعة ١٩٢٧ الجزء الثاني ص ٢٢٩ .

(٢) المباهج الدنيوية ص ٦٣ .

بحثا عن الله . لكن بينما البحث عن الله في « مذكرات أندريه
والتر » لا يتطلب فحسب مجهودا كبيرا ومستمرًا من جانب
الارادة بل يتطلب ايضا استبعادا متعمدا للوقائع اليومية ،
وهنا يكون العكس صحيح . وفي الحقيقة يصعب أن نتحدث
بدقة عن « بحث » ، فما من « بحث » ضروري حقا .

« لا تمن يا ناتال ، تبين الله أينما تتوجه » (٣)

« أو حيث تذهب ، فانك لن تبين إلا الله » (٤)
ويكفي هذا لتقبل المسألة ، لكن الله حاضر في كل مكان ،
وروح التقبل الملائمة لا يجب أن يعورها التردد :

« يا ناتال لا تمسك في كل لحظة بأية رغبة ، ولكن
تمسك بكل بساطة بمسألة ملاقاته . . . ولا تفرق بين الله
والسعادة ، بل ضع كل سعادتك في اللحظة أو الآن » (٥) .

ونحن نملك الله في شكل السعادة ، فان تجربة مكثفة
على نحو كاف من السعادة تشكل في الواقع حالة عبادة .
وهذا هو السبب الذي يجعل المؤلف يعد تلميذه ناتانيل
« بالتوهج » . ولا يهم ما يلهم حالة التوهج ولا أين يتركز .
(كل) الأشياء يجب أن تعبد « دون تمايز » (٦) . وطبيعة

• (٣) ص ٦١ .

• (٤) ص ٦٢ .

• (٥) ص ٧٣ .

• (٦) ص ١٢٤ .

الدافع يمكن الا تكون سوى مسألة غير مهمة . ان كيف التجربة لا يتوقف على طبيعة الشيء بل على حالة الذات . ولما كان « الجوع خير متعة » فمن السهل ان نتبين بأي معنى تشكل « المباهج الدنيوية » « اعتذارا عن القساوة » :

« ان من يأكل لا يتمشى ، ومن لا يملك يظل جوعانا » (٧)

ان معظم اللذات المادية المثارة في « المباهج الدنيوية » هي في الواقع من اشدّها بساطة : لكنها ترتبط بوفرة من الشهوة والنهم لتقديم أعظم توهج ألا وهو العبادة والسعادة ومعرفة أو « امتلاك » الله .

ان الشيء نفسه لا يستطيع ان « يمتلك » الله ويتضح هذا منذ البداية :

« ان كل مخلوق دليل على الله ، وما من احد يستطيع ان يكشف عنه » (٨) وكما يقول جيد في « مباهج جديدة » بعد هذا بثلاثين عاما :

« ان الله لا يستقر في الشيء ولكنه يحبه . . . » (٩)

ان الموضوع الحقيقي لكتاب « المباهج الدنيوية » ليس الصق بالارض من الموضوع الحقيقي في كتاب « مذكرات

(٧) ص ٨٣ .

(٨) ص ٦١ .

(٩) ص ٢٠٥ .

أندريه والتر « وان جوع مؤلفه وعطشه ليسا من أجل
الثمار الأرضية :

« بل من أجلك أنت ! أنت أيتها الافكار اللامادية ! ولا
تستطيع أن تسجن أشكال الحياة ومعرفة الله تبتز كل
الحقائق » (١٠) وان كل قطرة من كل هذه الوفرة المتدفقة
لها قيمة مماثلة بالضبط تصدر بالمثل من الله . وأية قطرة
منها تفيد في الهام فيض المشاعر الذي تشتاق اليه النفس
وتكشف لنا كلية الله وامتلأه .

ان التجارب الروحية — شأنها في هذا شأن التجارب
المادية — تأتينا من الله . وهذه العبارة التي طرحنا على هذا
النحو تبدو أكثر من مجرد تعبير عن التقوى البسيطة . وفي
الحقيقة ، على أية حال ، لا يضع جيد المسألة على هذا
النحو البسيط . فهو يصر المرة تلو الأخرى على إضافة
صغيرة ولكنها حاسمة : ان (كل) التجارب الروحية مثل
(كل) التجارب المادية تأتينا من الله . وعلى المستوى
الروحي وكذلك على المستوى المادي ، نجد أن طبيعة الباحث
الذي يولد مركب السعادة — العرفان — العبادة الذي هو
شكل معرفتنا « للتملك » أو الله (يجب) أن تكون مسألة
غير هامة . ان (كل) قطرة من هذا ينبوع الالهى العظيم
له قيمة مماثلة ، وان تفضيل أي قطرة على الأخرى هو
تفرقة عنصرية موجهة ضد الأخرى بطريقة لا يمكن أن يبررها

(١٠) ص ١١٢ .

أي شيء في التحليل الأخير . ولما كانت التجربة المرفوضة
تتيح فرصة مماثلة لما تتيحه التجربة المختارة بالنسبة لفعل
العبادة الذي به يصبح الله معروفا لنا فان كل رفض هو
رفض لله .

وحتى نتجنب أن نكون آثمين من جراء هذا الرفض،
يجب أن نظل غير ملتزمين (وهو ما يسميه جيد «متحررين»)
بأية تجربة خاصة مادية أو روحية . ومع هذا ، اذا كانت
هناك ارادة كلية مصاحبة لتقبل - دون تفرقة - لكل
الاشياء - كما يجب أن تكون بأية طريقة - اذن فان التوهج
موضع النظر ستكون له طبيعة عكسية تماما لما يبحث عنه
أندريه والتر للتمسك به بمجهود من جانب الارادة . وبينما
والتر عازم على البحث عن السعادة « لا في السعادة ولكن
في الشعور بنشاط النفس الارادي » فان مؤلف « المباهج
الدنيوية » لا يرى مصدرا ممكنا وحيدا للسعادة الحققة سوى
ما يمكن ان نسميه حالة من السلبية الشديدة ، وليس على
الاطلاق على عكس حالة والتر الذي يرفض والتي يفقد
الانسان فيها كل شعور « بمقاومة أليمة من جانب النفس » .
وقد وصف أندريه جيد في تصديره عام ١٩٢٧ الروح السائدة
في « المباهج الدنيوية » على انها الاستعداد « لان نجد في
كبسولة النفس تحقق النفس على نحو اكثر اكتمالا واكثر
اقتضاء ولا محدودية اكثر لاتاحة السعادة » . (١١) .

لقد هدى شوبنهاور اندريه جيد نحو التركيز على النفس . غير أن مؤلف « المباهج الدنيوية » يقدم لنا تانيال الحالة المضادة - حالة تبدو فيها النفس قصيدة بدون قيود، مدافعا عنها بدون حدود ، قائمة بدون تعريفات .

« انني مريض ولا أستطيع أن افكر في شيء ... ان الطبيعة تخترقني ، يساعدها في هذا اضطراب في أعصابي ... انني لا أشعر بالمرّة بجسدي محدودا ، انه أحيانا يستمر في مكانه ، أو يصبح مفككا كالسكر على نحو يستثير اللذة ، وأنا اقيم بنيانه » (١٢) . ان قلبه « يسيل » و « يفيض » (١٣) . وبين التجربة المادية والاستجابة الانفعالية لا يوجد خط فاصل : لا يوجد خط فاصل في أي مكان .

واستثناء أي تجربة على أساس أنها شريرة جرى مقاومته على أساس أن (أي) تجربة (يجب) أن تبث في الذات حالة اللطافة (السعادة - العرفان - العبادة) حيث يصبح الله معروفا . بمعنى ان الامر يتوقف على الذات .

ولكن لما كان الحد بين الذات والموضوع غير محدد فإنه ليس من الضروري التمسك بهذا الجدل . لم يعد في احكام الذات أن تستبعد (أي) تجربة (مهما) تكن الاسس . وعندما يعلن اندريه والتر : « لا يجب ان أتوقف عن حبك

(١٢) ص ١٠٢ .

(١٣) ص ١١٨ .

اطلاقا . . . » و « التوهج يجب الا يضعف اطلاقا » فانه يستجيب لارادته .

ولم يكتب المؤلف بالمعنى الحرفي لاتخاذ قرار حاسم الكلمات الشهيرة في « المباهج الدنيوية » . « انني آمل تماما ان أعرف كل الانفعالات وكل الرذائل ، على اية حال أريد ان أعرف منها ما افضلها ، ان كل وجودي موجه بتمامه نحو المعتقدات » (١٤) .

ولكن اذا لم يكن في استطاعة الذات ان تستبعد اية تجربة ، فانه بالمثل يبدو خارج قدرتها ان تضم (كل) تجربة ، فالزمن في تفلته الدائم اللانهائي لا يستوعب دوما كل الامكانيات غير المتحققة التي لا يمكن استعادتها اطلاقا . والخسارة لا تعوض على الاطلاق ، ونستشعر بعمق :

« انني حائق على فرار الساعات . وان ضرورة الاختيار لا يمكن تحملها على الاطلاق ، الاختيار يظهر مقدار انتقائي ، انني مستبعد بقدرة عدم اختياري . انني افهم بفضاعة مقدار محدودية الساعات وان الزمن ليس له بعد ، هذا اتجاه حيث تكون تمنياتي كبيرة ، وان رغباتي تسير في اتجاه يفتصبها بالضرورة الواحدة تلو الاخرى » (١٥) وليس الامر قاصرا على انه لا توجد فسحة مبع

(١٤) ص ٦٨ .

(١٥) ص ١١١ - ١١٢ .

الوقت كافية للتمشي مع وفرة الحياة . ان الخط ليس له
الا خاصية واحدة : الاتجاه ، والاتجاه الذي يجري فيه
الزمن هو دائما بعيد عن التوهج ، بعيد عن الله : ان
الاصرار على تجربة ما يعني ابتعاث أسف مباشر على
التجربة التي استبعدها الاختيار وكلما استطال الاصرار
استطال هذا الاسف الى ان يقوض ويدمر اخيرا التوهج الذي
به لا تكون للتجربة قيمة . والموضوع الذي يضرم النار في
التوهج الذي به وحده يدرك الله يجري استشهاده كحضور
ثقل يمتلك اكثر مما يمتلك ويعوق ظهور كشف او تجل
لا يترك له موصفا .

« . . . ومع هذا انه يتأمل الله بأكبر قدر من الوضوح »
وانني اتبين ان كل شيء في هذه الارض مما اتمنى يكون معتما ،
وان العالم ينقصه ان يكون شفافا ، ينقصه الوضوح حيث
يكف الله عن ان يكون له وجود معقول داخل نفسي » (١٦) .

ولا يستطيع الانسان ان يتبع الله اسفل خط الزمن ،
فالخط يجب هدمه : وتدمير طابعه الحدي .

اذن يجب ان نترك ولدنا عدد لانهائي من (النقاط) .
ولن يكون حتى تتابعا من النقاط ، لان النقطة ليست لها
خاصية الاتجاه . ان النقطة الواحدة لا تستطيع ان تفضي
الى نقطة اخرى ، وبين اية نقطتين يوجد حل جذري
للاستمرارية .

فاذا انزاحت خاصية الحدية عن الزمن فيجب الا يترك امامنا الا معادل مؤقت من لانهاية النقاط . والتجربة يجب الا تكون دائما سوى تجربة « وقتية » . نقطة اشعاع ضد خلفية مظلمة .

« ياناتانيال ، سوف اكلمك عن (الآلات) . ماذا تفهم من أن قوتها تمثل (حضورها) ؟ ... ألا تفهم أن كل آن لا يأخذ روعته العجيبة الا بفضل غموض الموت ؟ » (١٧) ،
والوعي بهذه الخلفية الخاصة بالموت هو الذي يجعل الحياة ممكنة (١٨) .

ان جيد الذي يسترشد بهذه المبادئ يجد أن الحياة فيها نوع من الكثافة المتطايرة من الشظايا حيث لا يجمع الحياة في التو دائما في لحظة واحدة جديدة . ان ما يسميه الانسان الاجتناء هو اجبار مستحيل . انني لا افهم كلمة (الوحدة) ، الوجود هو أنا ، انه ليس وجودا شخسيا ، انني ممتلئ بالناس » (١٩) .

ولكن هذه الطريق للحياة تولد نتيجتين هامتين : من جهة ، فلكي تكون لدينا لحظة جديدة دائما ، يجب أن (تتجدد) اللحظات بشكل دائم ، وخارج هذه اللحظات

(١٧) ص ٩٠

(١٨) ص ٩٠ .

(١٩) ص ٢٠٩ - ٢١٠

يوجد الموت . ولا يمكن أن ينقذ الانسان من الموت الا بتكثير
لأنهائي للحظات التوهج . يجب ان تقع فريسة حالة لا تسمى
من الحذر » . . . حيث لا تنكشف نحو الحياة الا زفرة جديدة
من الرغبات « (٢٠) .

ومن جهة أخرى ، لما كانت الحياة قد ارتدت الى
هذه اللحظات ، وكانت هذه اللحظات متقطعة بشكل كبير ،
فان الحياة تكون متقطعة بشكل كبير ضد خلفية من الموت
تبدو فيها اللحظات على انها توقفات ، ولهذا تكون النفس
متقطعة على نحو كبير ، وكل لحظة جديدة تعيشها نفس
جديدة .

« وهكذا أعود على (فصل) كل لحظة من حياتي من
أجل مجموعة كلية من المرح والمعزولة ، من أجل التركيز
على جزئية السعادة ، وهي نوع أثبينه أكثر مما أتذكره » (٢١) .

ان النفس وهي متحركة بذاتها داخل اللحظة لا تعود
مقيدة بالنفس الماضية التي نسيتهها ولا تعود مسئولة عن
النفس المستقبلية التي لا تستطيع أن تتكهن بها .

ان مؤلف « المباهج الدنيوية » يظل أميناً مع مذهبه ،
وكتابه يشغل لحظة في حياة مذهبه . ولكنه يجب ألا يكون

(٢٠) ص ٢١٥ .

(٢١) ص ٩١ .

مقيدا بأي شيء قد يعطى له ويجب ألا يلزمه شيء . وكلاهما
يجب أن يكون حرا من علاقة الاستاذ بالمذهب :

- « ياناتانيال ، في اللحظة الراهنة دع كتابي حرا .
- اتركني . اتركني ، الآن احلف عليك دعني » (٢٢) .

الفصل الرابع

الاخلاقي والباب الضيق

التكملة السليمة لكتاب « المباهج الدنيوية » لا نجده في « بروميثيوس مقيدا » - وهو كتاب سنعود اليه فيما بعد - ولا نجده في الاعمال الثانوية في التاريخ نفسه « فيكولتيت » او « الحاج » ، ولكن في الكتابين التوام « الاخلاقي » (١٩٠٢) و « الباب الضيق » (١٩٠٩) وذلك لانه لو كان كتاب « المباهج الدنيوية » تعبيرا غنائيا سديدا عن مرحلة من تطور جيد فانه قد ترك لنا سؤالا هاما دون جواب .

ان كتاب «المباهج الدنيوية» هو فعل من افعال التحرر: انه للغاية تحرر النفس من النفس . لقد افضى تقويض التصور الاتجاهي للزمن - كما رأينا - الى تقويض استمرارية النفس ومن ثم افضى الى اختفاء فكرة الهوية . ان النفس ذات حركة ذاتية داخل اللحظة او الآن : لكنها لا تستطيع ان تبقى بعد اللحظة او الآن ، اي انها لا تستطيع ان تحتفظ في لحظة اخرى بالهوية التي منحتها اللحظة الاولى وعاشت فيها .

ومع هذا ، لو ان النفس قائمة في الآن وعن طريق الآن ،
أي اذا كانت ممتدة مع الآن فبأي معنى ومهما تشكلت تظل
باقية أو تستطيع ان تظل باقية على الاطلاق ؟ « ان معرفة
التحرير ليست شيئاً ، والصعب ان تكون هذه المعرفة
حرة » (١) .

ان كتاب « سول » - الذي يجري فيه اضفاء الطابع
الدرامي على تحلل النفس - قد كتب من جراء اقتناع مريس
بان « المباهج الدنيوية » لم تغلب على هذه الصعوبة . واضح
ان هناك احتياجا من نوع ما يحصل على التصور الاتجاهي
للزمن غير الفكرة البسيطة الخاصة بالآن المعزول . واذا امكن
اظهار الآن على انه يحتوي على قوة دينامية تؤكد اختفاء
الآن وتستدعي الى الوجود آنا آخر ، يمكن للنفس ان تتعزز
في أي شكل ضد مزاعم التجربة الآنية لتشربها للنفس
واستنفادها اياها . وكما رأينا لا توجد في الممارسة الا مثل
هذه القوة . انه وعي مزدوج مائل في الاستهلال الخاص
لكل آن : وعي بخلفية الموت الذي يكتسب الآن هويته ضده
ووعي بالامكانات المنافسة التي يستبعدها الآن .

هنا نجد لب عملية جدلية يتبعه كتابا « الا اخلاقي »
و « الباب الضيق » بحركة تصوير بطيئة حتى نتيين على
نحو اوضح في هذين الكتابين اكثر من أي عمل آخر لجيد
طبيعة الجدل الذي يشكلها جميعا .

(١) الباب الضيق ص ١٥ .

في هذا الجدل نجد قضيتين متفارقتين ومتناقضتين تواجه كل منهما الاخرى حتى ان كلا منهما ليس لها معنى او قيمة بدون الاخرى . واذا اشرنا الى الاطروحة الكبرى لكل كتاب على انها « القضية » المعروضة فيه سوف نتبين كيف اظهر جيد بجلاء عناصر عرضه .

انه يدرك بوضوح صعوبة تأكيد ان الكتابين يحققان بالتفصيل المتطلبات التي ذكرناها من ذي قبل ، وكل منهما يقابل بالضبط المفهوم الهيجلي عن « الآن الجدلي » . ان القضايا التي يحتويان عليها قضايا متزامنة . ونظرة على « اليوميات » يوضح هذا :

« ألم اغرك بان هذا الكتاب هو صنو لرواية (اللا اخلاقي) وان كلا الموضوعين يتعاظمان بشكل تنافسي داخل نفسي ٤٠٠٠ » (٢)

« ان (التزامن) هو ما كتبه » (٣) .

وان شهادة جيد تتكرر وهي ليس لها مثيل .

والقضايا موضع النظر لا يمكن ان تنفصل عن بعضها ايضا .

« ان الموضوعين يتعاظمان في آن معا داخل روعي وان

(٢) المذكرات ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٣) المذكرات ص ٤٢٧ .

تطرف أحدهما قائم في تطرف الآخر وهذا يولد سزا ،
والموضوعان الآن متوازنان » (٤) .

وبالتأكيد :

« انني ما كان يمكنني ان اكتب (اللا اخلاقي) ما لم
اكن قد كتبت (الباب الضيق) » (٥) .

واذا تركت لنا فسحة للتبسيط الذي يقتضيه الإيجاز
فان الفحص الادق للكتابين سوف يبين أنهما متعارضين
تعارضاً شديداً .

الشخصية الرئيسية في كتاب « اللا اخلاقي » هي مؤرخ
شاب اسمه ميشيل . لقد رباه أب مولع بالدراسة في جو
دراسي انسحابي من العالم . وبالرغم من جهل يكاد يكون
تاماً بالحياة ، تزوج . وتبدأ حكايته في اللحظة التي يشرع
فيها هو وعروسه الصغيرة في رحلة شهر العسل في شمال
افريقيا .

ويقع ميشيل فريسة مرض خطير ويولد فيه منظور
الموت لأول مرة وعياً بالحياة .

« لقد فكرت من قبل انني افهم انني احيا .

(٤) المذكرات من ٢٦٥ - ٢٦٦

(٥) المذكرات من ٤٢٧ .

ويجب أن تعمل من أجل الحياة الممتلئة « (٦) .

إن الحياة - عند هذه المرحلة - تتحدد سلبيا ، مقابل الموت . والرغبة - اذا كانت هناك رغبة - يجري التعبير عنها بأحسن ما يكون على أنها رغبة (في عدم الموت) ، والصحة لأول وهلة ليست أكثر من وسيلة لتقديم مقاومة فعالة ضد الموت . أن ما يجذبه فوق كل شيء للأطفال العرب الذين يتحلقون حوله هو وفرة الحياة التي يطالعوها فيهم .

وزيارة واحد منهم تولد فيه التعجب :

« آه ! كم يبدو رائعا ! أن ما أثبينه هو : الصحة والسلامة . أن صحة هذا الجسم الصغير جميلة » (٧) . وبمهارة مميزة - يكاد الإنسان يقول « بمكر » شديد - يقدم المؤلف عنصرين جديدين في مفهوم الصحة : الحب والجمال . « الصحة » يجب أن « تحب » (وليس فقط تقابل الموت) لأن « الصحة » جمال . وضبابية هذين المصطلحين متعمدة وسوف يجري استغلالهما تماما .

وفيما بعد يبصق ميشيل دما ويندهش أن يجد في نفسه ردود فعل من الخوف والفضب . وفي التسمية

(٦) اللاأخلاقي ص ٢٨ .

(٧) اللاأخلاقي ص ٢١ .

الفريبة للتفسير الذي يقدمه لنفسه هناك نفمة تكاد تكون
نفمة الخطر .

« واحسرتاه ! ان هذا هو ما بدأته ! لقد أحببت
الحياة » (٨) .

ان الباحث الاولي لتفضيل الصحة على المرض اصبح
انكشاف جمال الصحة في شخص الولد العربي . ويتخذ
هذا الانكشاف شكلا أكثر دقة عندما يحدث ان يقطع
الصبي نفسه بسكين ، وفي التوتر الأكبر لرد الفعل عند
ميشيل نجد ان الانتقال من موقف سلبي الى موقف ايجابي
يتكامل بشكل مقنع . ان ميشيل ما عاد يسعى الى (الابتعاد
عن) الفناء ، بل يسعى (الى) الوجود . ومراى دم
الصبي النقي الدافئ يملأ ميشيل برغبة يائسة في الحياة .
انه يجز على أسنانه ويتوتر فيه كل عصب وهو يركز
كل وجوده على « هذا الجهد نحو الوجود » (٨) اذن على
حافة الموت يتولد انفعال جديد — انفعال بقوة دافقة
هائلة — وميشيل يحاول ان يتوافق معها وهو يستوعب
موقفه ويستخلص نتائجه .

« من أجل الزمن يصبح شفائي دراستي ، وواجبي
هو سلامة صحتي ، يجب ان ارتئي على نحو طيب واسمي
الاشياء بشكل (سليم) وكل من حياني وأهملني وأراحني

(٨) الاخلاقي ص ٣٢ .

انما يعمل على عدم شفائي » (٩) .

وبهذه البراعة نفسها كما من قبل يقدم المؤلف في تاريخ الحالة عناصر تتجاوز تضمينات هذه الحالة المباشرة . فلم يكن امام ميشيل أن يبحث عن وسيلة لاستعادة صحته الجسدية فحسب ، بل كان عليه أيضا أن يسمي هذه الوسيلة (الخير) (ما بين أقواس من وضع جيد) ولا يقتصر الأمر على أنه يجب عليه « أن ينسى » ما لا يتفق مع هذه الغاية ، بل عليه أيضا أن « ينبذه » .

وهو يتلاعبه على المعنى المزدوج لكلمة فضيلة ينقل هذه العملية الى مرحلة أبعد :

« لم أستطع النوم هذه الليلة ، نظرا لان ضغط فضائي الجديدة قد استشارني » (١٠) .

وهناك التباس مشابه يحمل الراوي الى مرحلة تالية في العملية التي يصفها . يجري الشعور الآن بـ « الحياة » على أنها تسير درجات وهذه الدرجات — كما جرى الاقتراح في التو — هي درجات (كيفية) :

ان ميشيل يتحدث — في اطار مادي — عن حساسيته المفرطة . وعندما كان مريضا كان يعاني بشكل كبير من تقلب

(٩) الا اخلاقي ص ٢٣ — ٢٤ .

(١٠) اللااخلاقي ص ٢٥ .

الجو . ولم يكبد يكف عن العرق حتى بدأ يرتعش . وكان يكفي سقوط قطرة ماء على قدمه حتى يرتعد من البرد . وبعد تماثله للشفاء أصبح حساسا كما كان قبلا بالنسبة للحر أو البرد ، وكل هذه الحساسية لا تحمل اليه الآن إلا الابتهاج . قد تكون الحساسية مصدرا للابتهاج بقدر ما هي مصدر للعذاب « وذلك يتوقف على ما اذا كان الجسم قويا أو واهنا » (١١) . وان مصطلحي « قوي » و « واهن » بهما ، بطبيعة الحال ، شحنة انفعالية مميزة تمارس لصالح الافراء الخلقي .

ومن الواضح ان هناك احياء بان الجهاز (يكسب) من طريق القوة ، وما يكسبه هو مقدرة على استيعاب البواعث القوية وتحويلها لصالح الجهاز . والمقابل الواضح يمكن ان يتقرر بقولنا انه كلما كان الجهاز أقوى أصبحت شهيته « أكثر صحة » .

وسرعان ما يبدو له « بشير » - أول محمي ميشيل من العرب - « غير ملائم » . وخليفته مكثير - في الاتجاه الذي يسير فيه الآن ميشيل - يشكل في الحقيقة « تقدما » على سابقه . وهذا هو مغزى القصة المتحققة بجمال في الكتاب .

وذات صباح ، عندما كانت زوجته مارسلين غائبة ،

(١١) الاخلاقي ص ٢٧ .

يراقب ميشيل مكثير الذي كان يعتقد انه غير مراقب (او هكذا يعتقد ميشيل في ذلك الوقت) فاستولى على مقص يخص مارسيلين . ولم يفعل ميشيل الذي كان يراقب حركات مكثير في مرآة شيئاً لتفتيشه ، بل بالعكس يجد نفسه وقد استحال الى حالة غريبة من الجمود حيث لا يلعب الشعور بالاستنكار أي دور .

« لقد خفق قلبي بشدة للحظة ، ومع هذا فان اكثر تعقلاتي الحكيمة لم تتمكن من أن تبث في الشعور بالتمرد . حسنا ! انني لم أتمكن من أن أبرهن على أن الشعور الذي ثبته حينئذ قد حمل شيئاً ... من الفرح » (١٢) ويتيح ميشيل لكثير عديدا من الفرص لاختفاء المقص في روب الحمام الخاص به . وعندما تفتقد مارسيلين صدفة المقص تخترع قصة او أخرى تبرر اختفائه .

هذه الحادثة حاسمة . الارتفاع في شدة الحساسية، والاثارة التي يعيشها ميشيل والذي هو الآن « مستعد » أن يراها بكل بساطة كزيادة في الحياة ولهذا كشيء يجري الترحيب به انما يستمد قوته في لا أخلاقيتها . ولهذا فان الاخلاقيات تبدو كقوة تقييدية بها تفتقر الحياة وتتلشى دوما .

ان ميشيل وهو يتأمل الآن في فقر مشاعره قبل مرضه

(١٢) اللااخلاقي ص ٤٩ .

يراها وقد كبتت وأصبحت في الخلفية :

« انها تحيا ! انها لا تكف عن الحياة ، انها تكتشف حياة مستترة ومأكرة » (١٣) .

وتبدو « سنوات الدراسة » هنا كقوة تقييدية . لقد قهرت الحياة وكبتت في العالم السري، وهذه الحياة هي التي تهم ميشيل الآن . هذه هي الحياة الوحيدة التي تهم حقا ، لانها هي الحياة « الاصلية » .

ان الحياة لصالح أخلاقيات تقليدية قد جرى تجاهلها الى حد كبير أو جرى اخفاؤها أو حجبها ، وعندما أصبح ميشيل واعيا بها سيطرت عليه جدتها . ان الشخصية التقليدية التي ربطه بها المجتمع هي قوقعة خالية ، وليس هذا هو ما يبحث عنه . ان ما يبحث عنه ميشيل هو « آدم القديم » الذي رفضته الاناجيل والذي يسعى كل عنصر « محترم » في المجتمع الذي يعيش فيه أن يكبته .

ان « هذا الوجود الثانوي المعروف » (١٤) الذي أثقلت به تربيته نفسه البدائية لا يصبح الا عقبة في طريقه ، ويعتزم ميشيل ان يخلعه . وعلى أية حال ، يجد جيد أنه من الضروري تعزيز هذا الوضع القائم على المغامرة . وهو يفعل

(١٣) اللااخلاقي ص ٤٣ .

(١٤) اللااخلاقي ص ٥٥ .

هذا بالإشارة الى مناقشة سابقة ، مناقشة حول النمو
والمقدرة .

« ... لقد حصل هنا على الشفاء ، لقد حصل على
النماء ، حصل على تجديد الحياة ، حصل على تدفق الدم
بشكل أكثر غنى وأكثر حرارة مما من افكاري ، مسها واحدة
اثر الاخرى ونفذ فيها جميعا فأهاجها ولونها ، لون أكثر
خيوط وجودي تباعدا وأكثر خيوط وجودي دقة وأكثر
خيوط وجودي امتلاء بالاسراز » (١٥) .

ان نزعة ميشيل الا اخلاقية هي تمرد فعال ضد
اخلاقيات قائمة على « فكرة السماح والدفاع وسط ما هو
متعسف » (١٦) : لكنها ابعد ما تكون عن رفض احكام
القيمة . بل بالعكس ، انها مكرسة منذ البداية لاكتشاف
واتباع القيم « الاصلية » . وعلى أية حال ، فان سير
الاحداث منذ البداية مما يمكن التنبؤ به بما يتمشى مع
النظرية السابق تطورها . ان القوة الجديدة ستقتضي جهودا
جديدة ، والمقدرة الزائدة ستحتاج الى اشباعات لم يشعر
الجهاز الاضعف بحاجة اليها وهذا يعني في الحقيقة انه لم
يستطع ان يمثّلها .

ويجري الايحاء بجلاء ببعض من طبيعة المستقبل الذي

(١٥) الا اخلاقي ص ٥٦ .

(١٦) ذكريات ص ٣٦٨ .

يتكهن به عندما يتفكر ميشيل في كيف يؤثر سلوكه في
مارسلين . لقد خلق لحيته وسمح لشعره أن يطول ،
وتستلفته جدة مظهره الجديد باعتبارها انذارا بالامكان على
الاقل من وجهة نظر مارسلين . غير أن الحب - كما يعتقد -
يعمي مارسلين عن التغير الذي يحدث فيه . وهو في كل
حدث يعيد تأكيد نفسه لها قدر امكانه ، وهذا التمثيل يكلفه
جهدا لأول مرة : ولكن مع نمو قواه فان الشعور بالجهد
يتناقص الى ان يكف عن تقديم صدمة تأثيرية لتقدمه
الطائش .

ولما وجهت اليه الدعوة ليحاضر في « الكوليج دي
فرانس » فانه يعود الى دراساته التاريخية . لكن الحضارات
القديمة التي سبق له ان اعجب بها تجذبه على نحو اقل من
القوى البدائية التي اضعفتها هذه الحضارات او اخفتها .
ومن ثم يجد أن من الصعب أن يعزز اهتمامه بالماضي :

« انني لا اجد مذاقا فيما مضى ، ومذاق اللحظة
لا يزيد عن يوم ، غير أن المستقبل يطيح بسحر الحاضر
بقدر ما أن الحاضر لا يطيح بسحر الماضي ، ومن ثم كانت
ليلتنا في (سورنت) . . . ان حبي ، حياتي ، انما تنقذف
نحو المستقبل » (١٧) .

ومن الواضح من قبل أنه لا يستطيع ان يواجه مستقبلا

(١٧) الا اخلاقي ص ١١١ .

لا يجري التعبير عنه في إطار النمو . وكما يقول لمينالك :
« انني هكذا مهيثا لان اقطع سعادتي . . ، ومع هذا
فانني اتمو . . . » (١٨) .

وان ما كان نادرا ثم وافرا قد اصبح في الواقع شديد
الوفرة . والحياة عند ميشيل تكاد تكون الآن طافحة -
بالمعنى الحرفي - على حدود شخصيته . ولم يعد يكفي ان
يعيش تجاربه ، عليه ان (يستشعر) الآخرين وان يقاسمهم
حياتهم .

(والمشاركة العاطفية) لدى ميشيل لها طابعان ، فمن
شدة الوفرة التي عنده تتدفق الحياة . وهو - على سبيل
المثال - يجلس بجانب زوجته المتوعدة :

« كم من ليلة سهرت لاجلها ! اظل مثبتا نظري عليها . .
وانا آمل بقوة الحب ان ابث قليلا من حياتي في حياتها » (١٩) .

والعملية العكسية تظهر بشكل لا يقل قوة . فميشيل
في صدمته يفكر في المشاركة الوجدانية التي تربطه على نحو
اكثر بعمال المزرعة الذين يعيش وسطهم .

« انني اشعر بين ذراعي بقوة التحريك ، . . . اشعر

(١٨) اللا اخلاقي ص ١١٣ .

(١٩) اللا اخلاقي ص ١١٧ .

بأنزلاق في حلقي . . . انني أشعر بقوة الدفع . . . » (٢٠) .

انه في سعيه النهم بحثا عن التجربة « الاصلية » انما يسعى دوما للنفاذ من خلال القشرة الخارجية للمظاهر التقليدية الى الثروات الرائعة التي تخفيها المظاهر . ومن المحتم ان تظهر هذه الثروات كثيرا بشكل معقد ، فان دافع المجتمع هو ان يخفيها . ولكن هل رفض المجتمع لاي شيء معقد يجري دون تحد ؟

ان كل العناصر التي تتركب منها الاخلاقيات الاجتماعية التقليدية معادية للحياة ، ولا يمكن للنمو الحقيقي ان يتم الا في مواجهة هذه القوى ، والحقيقة الصادقة لا يمكن اكتشافها الا في تنحية هذه القوى جانبا . وتمرد ميشيل ضدها يجري تصوره على أنه رسالة ، واعلانه عن الايمان لا تنقصه العظمة :

« وكم من اجابة قديمة تشبع تساؤلي الجديد : ماذا يمكن ان يكون عليه الانسان ثانية ؟ هذا هو ما حمل اليّ المعرفة » .

والمجتمع ، باسم آداب السلوك ، يسدّل ثقابا على الحقيقة التي تهم طبيعة الانسان ومدى الامكانيات التي يمكن ان تحققها انسانية غير مقيدة ، والانسانية خلف هذا النقاب تختنق ، وتختنق أيضا الثروات الامكانية التي

... (٢١) ...

لا تصدق . وتمزيق هذا النقاب يقتضي فعلا من أعمال التحدي على غرار بروميثيوس ، وميشيل يقبل التحدي :

« لقد بدا لي حينئذ أنني أولد من أجل نوع مجهول من الاستكشاف ، ولقد انفعلت انفعالا غريبا في بحثي الذي أجده أنني أجده فيه الحضارة وآداب اللياقة والاخلاقيات» (٢١) .

وهو بتجنبه لهذه الامور انما يتجنب مارسلين بطبيعة الحال .

والسعادة الهادئة التي حملتها اليه زوجته مارسلين لم تعد تتفق مع معياره : لقد نما . ان الامر « كما لو كانت هناك هجمة لا يتبدى فيها التعب » (٢٢) واخفاق مارسلين هو رمز بارز على فشل وحدتهما . فميشيل يجد نفسه بالرغم منه يعتبرها شيئا أشبه بالاشمئزاز . ان توحيده بين الصحة والفضيلة قد افضى به الى رد فعل متماسك، انه مستثار بمعاناة زوجته الى حد انه يلومها على هذا ؛ الى ان يراها في النهاية « موصومة » بالمرض (٢٣) وابتعد .

وعلى أية حال مهما يكن الامر منطقيا ومحتما ، فان رفض مارسلين له نتائج على طبيعتهما أو على ثقتهما . فمن

(٢١) اللا اخلاقي ص ١٤٨ .

(٢٢) اللا اخلاقي ص ١٤٣ .

(٢٣) اللا اخلاقي ص ١٥٧ وما بين القوسين من هندي (اي المؤلف) .

الحق أن ميشيل لا يزال يجد متعة في مجتمع التفاهة
والمطروحات على أرصفة الميناء . وهو لا يزال يرى في تطور
ثرواتها الشديدة أجمل وعد بالمستقبل . زيادة على ذلك !
لما كان غير صبور على استطعام الحياة بقدر الامكان فانه يجبر
مارسلين الى رحلات لا تنتهي عبر سطح الارض الى أن
يقتلها التعب .

ولكن عندما يستعيد - بعد موتها - ركامات الاشياء
على أرصفة الموانئ التي هجر زوجته من أجلها ، فلا يعود
يتم هذا بحماسة منقسمة . ان التداعي الذي لديه الآن هو
« بقية الانسانية » . وربط الشعور القوي أولا بالصحة ثم
بالفضيلة لم يعد مقبولا : « ان وحشية الانفعال تنفذ (ثانية)
في عيوني (جانبا خبيثا) من الصحة والانتظام » (٢٤) .

ومن النتائج المتطرفة لمنطق ميشيل يتوصل الى ان :
« هناك شيئا ما في ارادتي يتهشم ... » (٢٥) . وفي نهاية
القصة يرقد بكل بساطة في قمرة في شمال أفريقيا .

وهكذا نرتد الى حيث بدأنا :

« لقد انقذت ، هذا ممكن ، ولكن ماذا جنيت ؟ » (٢٦)

(٢٤) الا اخلاقي ص ١٧٠ .

(٢٥) الا اخلاقي ص ١٦٩ .

(٢٦) الباب الضيق ص ٨٨ - ٨٩ .

ان « القضية » التي عرضت في « اللااخلاقي » ببساطة قدر الامكان هي أن اقتفاء الحياة هو عملية نمو حيث تتدعم مضاعفة التجارب الاصلية والثروات . وان اشد التجارب « المعاشة » أصالة هي تلك التجارب المرتبطة بالفساد الخلقي وهذه نتيجة طبيعية لان معايير الخير والشر قد حلت محلها معايير القوة والضعف ، وهكذا أصبح الطريق ممهدا لانفراق أو تناقض ظاهري لن تتضح محتوياته تماما الا بعد أن نتناول رواية « الباب الضيق » .

من الناحية الظاهرية ، رواية « الباب الضيق » هي قصة حب : هناك ابناء عم هما جيروم وأليسا يشبان معا في جو آمن تقوي بين جماعة بروتستنتانية هادئة من الطبقة الوسطى . وعندما كانا لا يزالان طفلين وقعا في الحب ، ويبدو أنه لا توجد سحابة تخيم في الافق ومن المؤكد أنه لا توجد عقبة في ارتباطهما .

وعلى أية حال ، يقوم جيروم ذات يوم بزيارة مفاجئة لمنزل أليسا ، ويحاول خادم مضطرب أن يحول بينه وبين الولوج ، غير أن جيروم لا يعيره انتباها . واثناء صعوده على الدرج الى غرفة أليسا في أعلى المنزل كان على جيروم ان يمر أمام باب مفتوح لغرفة جلوس لوسيل بوسولين ، وبالصدفة يشاهد عملية مضاجعة مراهقة بين أم أليسا وضابط صغير . ودون ان يلاحظاه يسارع بأكبر ما في طاقته الى غرفة أليسا . انه يطرق الباب ، ولما لم يتلق ردا فإنه يدخل وكانت أليسا

راكعة في الظلام وظهرها الى النافذة . ودون أن تنهض
تتحدث وتسأله لماذا رجع ؟ فينحني جيروم ليقبلها .

« هذه اللحظة قد حددت حياتي ، انني لم أعد اليوم
أحيا دون قلق . من غير شك انني لا أفهم تماما سبب تعاسة
أليسا ، ولكنني أشعر تماما أن هذه التعاسة قوية للغاية
بالنسبة لهذه النفس الصغيرة المضطربة ، بالنسبة لهذا
الجسم الهش الذي لا يتحمل الشهيق . لقد جلست أمامها
وقد استلقت وهي جائئة ، ولم أعرف شيئا يمكن أن يعبر
عما هو جديد في قلبي ، ومع هذا ضغطت رأسها على قلبي
وعلى جبينها ضغطت شفتي . يا لنشوة الحب ، والشفقة،
فتضرعت الى الله من كل قلبي انني لن آلو جهدا في ألا أدع
هذه الطفلة لغائلة الخوف وغائلة الشر وغائلة الحياة » (٢٦) .

وبصرف النظر عن غنائية هذا النص ، فإنه يقوم على
قدر كبير من الحساب المتعمد الشفاف ، ومهما كانت الواقعة
مثيرة للدهشة لأول وهلة ، فليس من قبيل المصادفة أن هذه
القوة تقدم مقابلا دقيقا لحادثة سرقة مكتر للمقص في
« اللاأخلاقي » .

فاذا نحينا في اللحظة الراهنة عنصر الغنائية ، فماذا
نجد ؟ أن زنا لوسيل بوسلين مثل سرقة مكتر هو فعل
لا أخلاقي يتم بطريقة سرية . أنه بالضبط فعل من تلك

(٢٦) الباب الضيق ص ٨٨ - ٨٩ .

الافعال التي تكبتها الاخلاق الصارمة في الاعماق والتي تشكل في عين ميشيل برهانا على القوة . (لم يكن جيد يتحمل ان يحمل لو سيل بوسلين بدفع حاسية وذاتية وروح للتحرر - انها تنفث سيجارة عشيقها - مما لا يملك ميشيل الا ان يوافق عليه) .

ان ميشيل وهو يراقب سلوكه كثيرا يشعر بابتهاج . اما اليسا وهي ترقب سلوك أمها فتشعر بالاشمئزاز . والآن لو كان ميشيل قد شاهد اي سلوك مثل هذا من جانب الكثير في أي وقت قبل شفائه لكان رد فعله دون شك مماثلا في جوهره لرد فعل اليسا في نفس الظروف . وطالما انه « مريض » ، كانت تكفي ان تسقط قطرة ماء على قدمه حتى يشعر بالبرد . والآن انه يحل او قد أحل محل الشعور الواهن شعورا قويا وتتلون استجابته بالتالي . واذا استطاع ان يجد توهجا وفرحا وتشجيعا في هذه الحادثة فان الامر يرجع الى انه قوي بما فيه الكفاية لوضع هذا موضع النظر . ولكن ماذا بشأن اليسا ؟ ان مصيبتها « شديدة للغاية » بالنسبة « لهذه النفس الصغيرة الواهنة » ، وهذا الجسد الهش » .

ان التكافؤ الذي يرسم على نحو مطول في « اللااخلاقي » بين الحياة والشر يبدو هنا مرة أخرى . ولكن بينما الكيان القوي سيبحث عن الحياة أينما يجدها فان « هذه الطفلة » يجب حمايتها « من الشر » (من) الحياة » .

اننا نجد كلمة « الفضيلة » في كلا الكتابين ، ولكن
بينما ترتبط في « اللاأخلاقي » بالقوة والنمو على حساب
الأخلاقيات ، فانها ترتبط هنا « على نحو غير متميز » بـ
« الحماسة » و « تكران الذات » .

وهناك نقطة أخرى يجب ان نذكرها : عن طريق القبلة
تلتزم نفس جيروم بأليسا ، ان مصيره تحدده لحظة او آن
واحد .

هنا تبرز « اللحظة الجدلية » على خلفية من العدم
وهذا يقابل تيقظ ميشيل للحياة على شفا الموت (من المهم
ان نتذكر ان كلا الدافعين « عند جيد » متزامنان) .

وكما رأينا فان تطور ميشيل هو اضطراب مستمر
تحدد فيه المراحل بشكل حبي : الرغبة في عدم الموت ،
الجهد نحو الوجود ، الحب الظاهر للحياة ، نحو القوة
والرغبة أو الشهية ، المطالبة بمزيد من الحياة الاصلية ،
محاصرة حياة الآخرين ، اسقاط المطالب المتزايدة دوما في
مستقبل لانهائي ... حتى نصل الى كل الارادة .

وتصف رواية « الباب الضيق » اضطرابا مماثلا لكنه
معكوس ، ويصعب تتبع هذا نوعا ما لان بناء رواية « الباب
الضيق » أكثر تعقدا من رواية « اللاأخلاقي » : ولكن لن
يشق علينا ان نتتبع خطوطها العريضة . لقد انصهر مصير
جيروم بمصير اليسا حتى انه يكفينا في اهدافنا الحالية ان

نركز على اليسا بالرغم من ان هذا يشكل افراطا في تبسيط الكتاب ككل .

ان نقطة الانطلاق في الاضطراد هي محبة الاطفال ، وجيروم يصف طابع هذه المحبة الرومانسي ويوضح انها تقوم على أسس روحية لا على أسس دنيوية ، حتى أنه يشعر أنه من الضروري أن يبرر استخدام كلمة « الحب » لوصف هذا الطابع للمحبة :

« هذه الطفلة التي قبلتها ثانية ، هل أتحدث اليها عن الحب واسمي هكذا الشعور الذي أكنه لابنة عمي ؟ » (٢٧) .

وخير برهان على الحب هو اكتساب الاهلية داخل النفس وبث الاهلية في المحبوب ، والاهلية في جو التقوى البروتستانتية التي يشب فيها الاطفال لا يجب تمييزها عن الطهر . وفي لحظة من لحظات الذروة في الحكاية تذكر اليس جيروم بهذا (٢٨) . وموقف جيروم في مواجهة الله واليسا هو نفس موقف أندريه والتر في مواجهة الله وامانويل ، واليسا مثل امانويل تتبين أخطاره :

« - ألت تبذل جهدا من أجل أن تسير وحدك ؟

هكذا على كل واحد منا أن يبحث عن الله .

(٢٧) الباب الضيق ص ٩٥ .

(٢٨) الباب الضيق ص ١٨٥ .

ـ ولكن عليك أنت أن تشير لي الى الطريق .

ـ ولماذا لا تجد مرشدا آخر للمسيح « (٢٩) .

من جهة بسبب حدوث مثل هذه التغيرات ومن جهة بسبب الاستماع الى موعظة حول نص اعطى للكتاب عنوانه، تبدأ أليس ترى حب جيروم لها على أنه يعرض خلاصه للخطر حيث أن حبه لها على الارض يشكل عقبة في وجه ادراكه والتقاطه لطبيعة الحب الالهي . وكانت قد بدأت في التفكير في شكل ما في التضحية من أجله عندما تقع حادثة تساعدنا على تبيان مجرى سلوكها . لقد علمت أن أختها جوليت قد وقعت في حب جيروم بالرغم من أنه يجهل هذا . وعندما تضحى جوليت دون ما أنانية بنفسها عن طريق « زواج المنفعة » تقرر أليسا حتى تحول دون هذا (٣٠) أن تضحى بآمالها في السعادة الدنيوية لصالح خلاص جيروم .

ولا يجب أن يقع هذا بدون بذل أقصى جهد ، وهو بالنسبة لجيروم الفضيلة وبالنسبة لأليسا الحياة نفسها . وعبادة الحياة على الارض تلك العبادة العظيمة التي تصل في كتاب « المباهج الدنيوية » الى مرتبة حب ومعرفة الله هي

(٢٩) الباب الضيق ص ٩٩ .

(٣٠) هذه هي (الدريعة) التي يقدمها الروائي اما الاسباب المسرحية

التي تقدمها أليسا فتجدها ص ٢٢٤ .

شيء (طبيعي) عند اليسا (٣١) .

« هذه الليلة ، من كل قلبي قد فكرت : شكرا يا الهي
ان جعلت الليلة جميلة! وفجأة تمنيتك وشعرت بك ، قريبا
مني ، وبعنف يجب ان تشعر بي » (٣٢) .

واليسا لا تستطيع ان تكون حية بشكل كامل بدون
جبروم ، وهي تعرف هذا :

« انني لا اكون انا حقا بل واكثر من انني انا الا
معك ... » (٣٣)

لهذا فان عملية نكران الذات التي تعتزم ان تقوم بها
ليست مؤلمة فحسب : انها تدريجية وبدون ارتداد . ونكران
الذات عند جبروم لا يشكل بالنسبة لاليسا الا نكرانا للحياة
نفسها . ان وجودها نفسه يتوقف عليه انه (هو) حياتها .
ولكن طالما انه حب (بشري) هو الذي يهيمن على علاقتهما
فان تضحية اليسا لا تكتمل .

وتشرع اليسا في تضحيتها بروح التوهج او الافتتان
الشديد وهي تكتب كل نزعة لتقبل أية قيمة تكون مجرد
قيمة انسانية ، وهي تكتب كل نزعة لتقبل اي فرح يكون

(٣١) ص ١٦٠ .

(٣٢) الباب الضيق ص ١٥٧ .

(٣٣) الباب الضيق ص ١٦٥ .

فرحا من هذا العالم . ان كل ما هو جميل ويجري في اطار
دنيوي - سواء كان اطار الجسم او العقل - يجري تشويبه
عمدا وبشكل فج . وهي ترتدي ملابسها بشكل خليع وتختار
تسريحة غير لائقة وهي تسيء استخدام يديها وتهمل البيانو
الخاص بها . وهي تعيد التسجيلات الموسيقية التي ارسلها
اليها جيروم من ايطاليا . وهي تحل محل مكتبة الروائع
الصغيرة التي ساعدها جيروم على جمعها كتيبات سوقية
لا قيمة لها عن التقوى العامة ، وأسوأ ما في الموضوع انها
تبحث عن الهبوط بأفكارها وأفعالها وحديثها الى مستوى
هذه الاعمال السوقية وأن تتظاهر على الاقل انها قد نجحت .

ويناشدها جيروم المروع مناشدة أخيرة :

« أليسا ! . . لماذا تركت جناحك ؟ »

ولكن لا عودة بالنسبة لاليسا تماما كما كان الامر
بالنسبة لميشيل :

« لقد غفمت : آه لا اسف على ما مضى . في اللحظة
الراهنة انني اطوي صفحة من حياتي .

- ان امامك الزمن يا اليسا .

- كلا يا صديقي ليس أمامي زمن . انه لم يعد هناك
زمن للحب ، ولقد تداخلنا الواحد في الآخر من أجل
الحب والله يقول يجب الا نحفظ بما لفد به والله
يحفظ بهذه الاشياء للافضل .

— هل تؤمن بمثل هذه الاقوال دائما ؟

— يجب أن تؤمن بهذا تماما ...

— تخيل هذا يا جيروم : للافضل !... انني أكرر
هذا القول ثانية وأنت تفرد ذراعيك وتغمض عينيك
« للافضل ! » (٣٦)

والنهاية محتمة — وقريبة : الفرار وحيدة الى
المستشفى الصغير في باريس حيث العزلة والموت .

وهذا الفرار وهذا الموت لا يشكلان انتصارا ، وتقدم
المذكرات التي تتركها اليسا وراءها برهانا ساطعا على أن
السكينة التي سعت اليها دون توقف قد انكرت عليها .
والحدث الاخير يقدم المقابل المأساوي لصيحة ميشيل : « لقد
تحطم شيء في ارادتي » . وذات صباح تجعلها نوبة قلبية في
حالة شبه تحطم وشبه أمل في الموت عندما تنتابها نوبة
أكرب :

« ان هناك رعشة في الكرسي وفي النفس ، ان الامر
كما لو كان هناك (ايضاح) عنيف وخيبة أمل لحياتي » (٣٧)
انها مهجورة شأنها في هذا شأن ميشيل ، والايمان الذي
حملها بعيدا لم يعد يحملها أبعد . لقد انتهى الباعث .

(٣٦) الباب الضيق ص ٢٠٧ .

(٣٧) الباب الضيق ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

« انني أريد أن أموت في هذه اللحظة بسرعة قبل أن أثبت من جديد أنني في وحدة » (٣٨) .

وواضح أنه في حالة أليسا كما في حالة ميشيل توجد نقطة انهيار . ولكن كما يمكننا القول بأنه حتى هذه اللحظة كانت القوة الدافعة وراء ميشيل هي دافع نحو الحياة ، يمكننا القول بأن القوة الدافعة وراء أليسا هو دافع هرب من الحياة (نحو « شيء أفضل ») . غير أن الدافع نحو الحياة يدفعه الى اختيار الشر ، ودافع أليسا نحو تكرار الذات يدفعها الى اختيار الموت .

فلو كانت مهمة هذين الكتابين حقا هي أن يقدموا اختيارا خلقيا ففي أي إطار يمكن طرح هذا الاختيار ؟ لقد اختار اللاأخلاقية ، غير أنه اختار الحياة ، واختارت أليسا الفضيلة لكنها اختارت الموت ، وكلاهما فشلا . وعلى أية حال ، فإن امكانية الاختيار بين وجهتي النظر مستبعدة منذ البداية ، فالقضايا المطروحة بالرغم من تعارضها تعارضا شديدا متزامنة ولا تنقسم .

فهل نحن مواجهون اذن (بمازق) ؟ هل يجب أن ننضاف هزيمة أليسا الكبرى الى انهيار ميشيل وبهذا تكون لدينا محصلة من الفشل ؟ كلا . فالطبيعة الجدلية للمواجهة بينهما وحالة الحوار الذي فيه وحده يكون لهما معنى انميا

(٣٨) الباب الضيق ص ٢٣٨ .

يمنع الاختيار البسيط عن طريق الاستبعاد . وبالنسبة لأولئك الذين يريدون أن يقوموا بمثل هذا الاختيار يعد هذا مأزقا ألما . ولكن هذا بالضبط - بالعكس - هو ما يحاول أن يتجنبه جيد ، ولهذا فإن التناول المنعكس في «اللااخلاقي» و « الباب الضيق » ليس لهذا مما يجب نبذه على أساس أنه لا يفضي الا الى (مأزق) .

فاذا استطعنا أن نفهم لماذا يبدو هذا التناول - بالعكس - بالنسبة لجيد - محتما فانا لن نرى فحسب كيف تتجاوز النفس حدود الآن ، بل سنكون ايضا في وضع مفضل لفهم طبيعة الالهام عند جيد ككل وأسس فنه جميعا .
لقد طرح هو نفسه المشكلة :

« انني ابدا لن اتخلى عنك ، ودفاعا عن نفسي للمرة الالف بل وللأسوأ أشعر بخواء ومع هذا كيف يمكنني أن أشرح هذه المساكنة في نفسي بين الاضداد المتطرفة مما أفضى الى مضاعفة مرضية وزاد من حدة الشعور بالوجود والحياة » (٣٩) .

وفي هذه الصيغة نجد أن السؤال يجيب على نفسه . وتصبح « هذه الحالة من الحوار » (٤٠) ضرورية بالنسبة لجيد لأنها أوجدت له بشكل لم يحدث من أي شيء آخر

(٣٩) صفحات لم تنشر ص ٢٧ .

(٤٠) المرجع المذكور .

« تكثيف الشعور - في اطار الوجدان - بالوجود ، بالحياة »
الذي هو الهدف الاقصى لكل بحثه . وهذا هو ما يصفه
في « المباهج الدنيوية » على انه حب الله ومعرفته ، وبهذا
المعنى يكون الله هدف كل مسمى .

وبعد خمسين عاما كان جيد لا يزال يتحدث في الاطر
هذه نفسها . ان سؤال ايكاروس البلاغي في « تيسوس » :
« الى اين تتجه ان لم تتجه الى الله ؟ » (٤١) .

انما يتردد على مسافة نصف قرن في تعريف مينالك :

« الله هو هذا الذي امامنا » (٤٢) .

ولكن - كما راينا - لا يوجد درب مباشر الى الله من
خلال أي من مخلوقاته (هو) .

وتوضح رواية « المباهج الدنيوية » انه اذا « كان
كل مخلوق يشير الى الله فانه ما من احدا يكشف عنه » .

ويشير ديدالوسن الى النقطة نفسها :

« انا لا اعرف من اين بدأ الله ، ومرة أخرى لا اعرف
اين ينتهي . وبالمثل انني انعصر وسط افكاري اذا قلت انه
لا ينتهي أبدا منذ البداية » (٤٣) .

(٤١) تيسوس ص ٦٣ (وقد ترجمها طه حسين - المترجم) .

(٤٢) المباهج الدنيوية ص ٦٣ .

(٤٣) تيسوس ص ٦٤ .

ودون أي مقاومة يتذكر الانسان التعريف المدرسي
الشهير لله وبمقتضاه يكون (الله) دائرة مركزها في كل
مكان ومحيطها ليس في أي مكان لان الوضع عند جيد على
عكس هذا تماما : الله دائرة محيطها في كل مكان ومركزها
ليس في أي مكان ، ونحن نواجه الله في كل التفاتة . وكل
تجربة انما تحملنا وتدخلنا في محيط الله ، غير اننا لا نستطيع
أن نشق طريقنا في الداخل من المحيط . (٤٤)

وتظل هناك امكانية يمكن التعبير عنها بصورة يبدو أن
جيد في نقاط كثيرة من عمله يحاول أن يجلوها . فاذا كانت
هناك نقطتان متعارضتان تماما على محيط دائرة واتصلا
عن طريق خط مشدود ، فان (الخط سوف يمر بالمركز) .
ويعبر ديدالوس عن الفكرة نفسها عندما يقول :

« هناك بالضبط حيث مفترق الطرق حيث القلب
نفسه على هذا الصليب تعزم روعي أن توجد » (٤٥) .

لقد رأينا أن القضايا في الجدل عند جيد متعارضة
تعارضاً تاماً . ونحن نعرف أنه لا يمكن الفصل بينها . ولقد
رأينا أيضاً أن أي انفعال (مستبعد) يتضمن — بالتعريف —
رفضاً لله ويشكل — بقدر ما هو مستبعد — حركة تبعد
عن الله . وهذا هو السبب الذي يدعو الى استعادة

(٤٤) انظر الفصل الثاني .

(٤٥) تيسوس ص ٦٣ .

التوازن (٤٦) فتولد دافعا في الاتجاه المتعارض تماما . اذن فان هذه الدوافع تتولد في اتجاهات متعارضة تماما بعيدا عن المركز والوتر المرسوم . هذا التوتر هو نتاج فوري للتوهج ، وهذه الحقيقة تسير في اتجاه تفسير الطبيعة ودور الغنائية في الكتابين وفي الحقيقة خلال عمل جيد كله .

في قلب الرواية - كما يقصد جيد - توجد نظرية مقررة بجلاء : « الرواية هي نظرية » (٤٧) : لكنها نظرية لا يمكن اعلانها الا في لغة الفن الذي لا تتميز عنه . وهذا الزواج بين التصميم الواضح والوفرة الغنائية هو جوهر فن جيد . ولكن بينما يبدو أن في ذهن أندريه والتر غنائية تلقائية ساذجة ، فانه لا توجد غنائية ضبابية مثل الغنائية الموجودة في « اللاأخلاقي » و « الباب الضيق » .

ان هذه الغنائية مرسومة لكي تغري ان لم يكن لتغوي ، وهذه هي المقصودة لكي تحدث تأثيرا تمارسه على الاصدقاء الذين يحكي لهم ميشيل قصته :

« لا تعرف أين يكمن النقد ، في الشر المفصل الذي يعطيه ، ونحن لهذا نكون شركاء فيه . ونصبح كما لو كنا منخرطين » (٤٨) .

(٤٦) في خطاب كتبه كلوديل الى جيد وصفه بانه «عقل بدون تحامل» وما من ثناء أرضى جيد خيرا من هذا الثناء .

(٤٧) مذكرات أندريه والتر ص ٤٥ .

(٤٨) اللاأخلاقي ص ١٦٩ .

غير أن جيد نفسه ليس بأي حال من الأحوال ضحية
فصاحته ، فالدافع الذي يلهم ميشيل في رسالته قوي في
خالقه ، لكنه لا يعميه كما يعمي ميشيل .

ولقد شرح جيد المسألة لناقد كتب مقالة عن رواية
« اللاأخلاقي » : هناك بطبيعة الحال جرثومة من ميشيل
في أخالقه .

« ولكن يوجد عدد من الانفعالات المتعارضة كما يقول
باسكال تكون الآن في حالة توازن لان الانسان لا يستطيع ان
يقرر احداها دون الاخرى ... ولكن الانسان بالارادة
يستطيع ان يلفيها جميعا من (اجل احداها) ... لكي
يمجدها ! » (٤٩)

هذا الشرح صادق أيضا بالنسبة لرواية « الباب
الضيق » مرة أخرى لا يمكن انكار القوة في جيد بالنسبة
لدافع نحو انكار الذات ، على الاقل نحو « شيء افضل » من
الحياة . غير أن مؤلف « المباهج الدنيوية » و « المستنقعات »
و « بروميشيوس مقيدا » و « الملك كندول » و « اللاأخلاقي »
غير قانع بحدود قوى اليسا في شعورها وفهمها .

ان الكاتب الاستاذ البالغ من العمر أربعين عاما
يضيق صبره :

« ان (الباب الضيق) تشير الشخص من صفحتين

(٤٩) خطاب الى شافر ص ٦١٦ .

الى ثلاثة « (٥٠) .

ان بطولة اليسا « لا فائدة منها بشكل مطلق » (٥١)، وفي مسودة لتصدير للكتاب كان عبارة عن مشروع فان الایحاء بان رواية « الباب الضيق » تشكل عودة الى روح كتاب « مذكرات أندريه والتر » مسألة مستهجنة باعتبارها اساءة فهم تامة ، بينما علاقتها الجدلية برواية « اللاأخلاقي » يجري الاصرار عليها بأوضح تعبير . (٥٢)

لهذا يوجد اختباران بالنسبة للدافع الاضلي في اي من الكتابين . فلا يمكن النظر الى الدافع فحسب مع ضده ، بل يجري اختباره بالنسبة لتقويضه . عند نقطة معينة لا يعود البطل في أعمال جيد - أندريه والتر ، ميشيل ، اليسا - يستمتع بثقنة المؤلف . ان المستمعين لميشيل - وقراء جيد - يتولاهم العجب : عند اية نقطة ؟ ان آرماند في كتاب « مزيفو النقود » يواجه صعوبة مماثلة . يقول : لو كان كاتباً لكان بحث في كل الاشياء عن النقطة الحرجة التي تفصل الوجود عن العدم . وهو يأتي بمثال عن حالة ستة من المسافرين نجوا بعد غرق السفينة . وعندما تم التقاطهم مات ثلاثة وأمكن انقاذ اثنين ، أما السادس فكان في حالة انهيار . وكان لا يزال هناك أمل : « ان كيانه

(٥٠) خطاب الى ١ . ١ . ١ . ر . ص ٦١٦ .

(٥١) مذكرات بلا تاريخ ص ٤٠ .

(٥٢) انظر ص ٣٥٩ وما بعدها .

يستطيع ان يتحمل النقطة الحدية « (٥٣) . ويوقف آرماند عند حده الطرف الآخر الذي يجري معه الحوار قائلا انه يفهم . بعد ساعة يستطيعون اتقاذه ، فيحتج آرماند ويدلي بالنقطة الاساسية التي عنده :

« ساعة كما ترى ! انني اعد اللحظة المتطرفة » الانسان يقدر عليها ثانية . قد لا يستطيع الانسان ان يقدر عليها ... هذا الخط الفاصل بين الوجود والعدم ... انني أطبقه على كل شيء يعرضه أمامي . انني اعتبره حد المقاومة ... هل تفهم الآن ؟ « (٥٤) .

« الوتر ينقطع » . فيما وراء النقطة الاخيرة التي يمكن التمسك عندها بالتوهج ، عندما يدرك ميشيل أن شيئا في ارادته قد انهار أو عندما تعيش أليسا ساعة صدقها فان التوتر الذي يبرز الكثافة او الشدة - في اطار الشعور - الخاصة بالاحساس بالوجود ، الاحساس بالحياة الذي يفيض من الاتصال بالله وهذا ما يضيع ويفقد .

ولكن اذا كان الامر هكذا ، فبأي طريقة يحل الجدل عند جيد مشكلة الحفاظ على النفس وراء حدود الآن ، حيث أن هذه المواجهة هي نفسها يجب اعتبارها على أنها آنية وقتية ؟

(٥٣) مزيفو النقود ص ٤٠٩ .

(٥٤) مزيفو النقود ٤١٠ .

ان صورتنا تزودنا بجواب : لما كان محيط الله في كل مكان ، ولما كانت لا توجد نهاية لبداية الله ، ولما كان كل مخلوق يشير الى الله ، فان (اي) تجربة تكفي لاطلاق حركة العملية الجدلية . ان اية عاطفة تستدعي التناقض الذي هو كمالتها ، والالتزام المتزامن بكلا العاطفتين سيمد الوتر خلال مركز الدائرة . ولا يهم من أين يمتد الخط من المحيط : « فالمركز يظل متوحدا ومتطابقا مع نفسه وهو يتجدد دوما في هذه الشدة أو الكثافة . . . الخاصة بالاحساس . . . بالحياة » التي بدونها لا يمكن أن تنهض حقا ولكنها فيها تتحد مع الله .

الفصل الخامس

كهوف الفاتيكان

في الوقت الذي كان جيد يكتب « اللا أخلاقي » و « الباب الضيق » كان يخطط لنوع من « البحث » يعتقد ميشيل أنه مكرس له . ومع هذا ، فبالرغم من أن الفضيحة كان من الصعب تجنبها ، فان أصدقاء قد اغروه ان يساير الظروف .

حسب رأي لويس مارتن - شوفيه ، ترجع كتابة « ايزابيل » (١٩١١) وهي قصة رومانسية مختلقة قامت على أساس حقيقة وأسطورة محليتين ، ترجع كتابتها بشكل مباشر الى تأثير قراءة جيد على مجموعة صغيرة من أصدقائه الحميمين الجزء الاول من « كوريدون » ، فحتى يحولوه عن عزمه في كتابة ونشر مثل هذا العمل اقترحوا عليه ان يؤلف كتابا له طابع مختلف تماما : وجيد لا يمكن ان يكتب بشكل سيء ، لكنه بالتالي اعتبر « ايزابيل » « غلطة » ومعظم المعجبين به راغبون في الاتفاق حول هذا الحكم .

ومثال صارخ على نوع البحث الذي كان في ذهن جيد

عندما كتب « ايزابيل » نجده في « ذكريات عن محكمة البلاط » (١٩١٤) وهذا الكتاب سرد واقعي لتجاربه كرجل قانون مع تأملات في القضايا التي اشترك فيها . لكن العلامة البارزة التالية في تقدم جيد كفنان نجدها في نشره عام ١٩١٤ لكتابه « كهوف الفاتيكان » . والدافع المباشر وراء كتابة هذا الكتاب هو نفاد الصبر الذي كان يشعر به جيد بشكل متزايد بالنسبة لنغمة وطابع رواية « الباب الضيق » .

« انني حينئذ املك قدرا كافيا من النغمات الاصلية والتدرجات المرهفة !... ان كل قاموس الحب لا يكفي للتعبير عن خمس سنوات ! » (١) .

لقد بدأ يحن الى طابع أكثر رشاقة وخفة وانطلاقا ونغمة مفككة أكثر ، يحن الى اناقة تكون طبيعية تماما «... . كما لو كانت سلامة طوية ثانية » (٢) .

ان التقابل بين النزعة الطبيعية وسلامة الطوية او الاخلاص في المجال الفني له بطبيعة الحال تضمينات وايحاءات خارج عالم الجمال . ان الاعمال التي تؤديها لانها متوقعة منا او لاننا نتوقعها من انفسنا او لانها تبدو النتائج المحتملة لماضينا او الاستطالة المترتبة لحاضرنا ، هذه الاعمال في رأي جيد ليست أعمالا « طبيعية » ، فهي استجابات لضغوط

(١) خطاب الى ا. ر. ص ٤١٩ .

(٢) كهوف الفاتيكان ص ٢٠١ .

تفرض بالقوة من خارج النفس ، وهي أعمال غير مخصصة
لانه لما كانت مستثارة فهي تبدو محتمة بينما لو كانت معتمدة
على النفس فقط فانها ما كانت تحتاج الى أن توجد على
الاطلاق وقد يحل محلها عدد لانهائي من البدائل التي لا يمكن
التنبؤ بها .

ان اعمالنا وافعالنا تميل الى أن تنتجها الظروف لا
النفس ، وهي الظروف التي توجد فيها النفس والتي تشعر
بها انها (مقيدة) . والفعل المخلص الحق ينبع مباشرة من
النفس وهو متحرر من مثل هذه الاعتبارا ت التي تحد وتوجه
والتي قد تحرقها أو تشوهها . وان فكرة مثل هذا الفعل
فكرة مغرية : « هل تفهم ما في هذه الكلمات : تجاوز
الآخر ؟ » (٣)

ان جيد يسمى في اطار الهزل الساخر لا الفارس الهزلي
الى أن يعرض في « كهوف الفاتيكان » نوع العمل الذي كان
في ذهنه والذي أطلق عليه بنوع من الاندفاع تعبير « الفعل
المجاني »

لقد سبق أن جذب الموضوع انتباهه في « بروميثيوس
مقيدا » ، الا أن كتاب « كهوف الفاتيكان » تنقل المناقشة
بخطوة أبعد . (٤)

(٣) ص ١٦٢ .

(٤) عالج هذا السؤال هيتيه في « أندريه جيد » ص ١٢٣ وما بعدها .

في « بروميثيوس مقيدا » يشرح نادل المقهى خلال حديثه مع بروميثيوس أنه يحب أن يجمع بين الناس بشكل قائم على الصدفة بدون داع محدد في العقل ، وأنه يبحث عن تقديم سلوكه بشكل « مجاني » .

أن الامر بشق النفس . ان الباعث هنا واضح تماما : ان النادل فضولي . ان نتيجة الجمع على مائدة ثلاثة غرباء لم يكذ يتم تقديمهم ليست مما يمكن التنبؤ به في كل تفصيلة (هل في هذا فعل أو عمل ؟) : لكن من الواضح أن هذا يرضي فضول النادل ، وهذا يقوض زعم الفعل بأنه مجاني حتى أن المرء ليندهش ان كان هذا الزعم حقا كذلك .

فاذا لم يكن الفعل مجانيا ، فبأي طريقة يكون ذا أهمية خاصة ؟ انه مهم بالنسبة لجيد بمعنى ان النادل ليس منخرطا في العلاقة التي يخلقها وانسلاخه عن الحدث يمثل بالنسبة لجيد دور الروائي كما يتصوره ، بالرغم من أن التصور من الناحية العملية يتحقق أحيانا بشكل غير كامل .

غير أن السبب الحقيقي لعرض فكرة الفعل المجاني هو بدون شك الحماسة التي يشعر بها جيد بالنسبة للمفهوم (كمفهوم) . ومن الحق أنه يجد المسألة صعبة للشرح أو حتى للاستيعاب ، لكنه يتهاى لها في حالة من الافتتان :

« الفعل المجاني ! هل بالنسبة لك لا يبدو شيئا ؟ لكنه بالنسبة لي يبدو رائعا . انني منذ زمن طويل اعتقد أنه هو

الذي يميز الانسان عن الحيوان : انه الفعل المجاني . انني اعتبر الانسان ، الحيوان القادر على الفعل المجاني . ثم بعد هذا انا افكر في العكس : في ذلك الوجود الوحيد العاجز عن اثاره المجانية . المجانية ! احله اذن : بدون عقل - اجل ، أقول لكم - صفوا الامر هكذا : بدون باعث ، بدون قدرة ، كما لو كان قد انطلق من تلقاء نفسه ! » (٥)

ان الحماسة هنا لا يمكن ان نخطيء في تبينها : لكن تفكك حديث النادل يبدو انه يعكس باخلاص التشوش الذي في ذهن خالقه ، لان القصة التي يسعى بها لتصوير وجهة نظر (والتي قامت عليها حكاية « بروميثيوس مقيدا ») غير حاسمة تماما .

ان الاله زيوس متنكرا على هيئة مليونير يهبط الى باريس وهو يحمل معه مظروفا يحتوي خمسمائة فرنك . وهو يسقط منديله وعندما يلتقطه احدهم يطلب منه ان يكتب له عنوانا - (أي) عنوان - على الظرف . ثم يصفع الغريب على وجهه ثم يبعث بالظرف على العنوان الذي يحمله .

وهذا الفعل لا يتفق في الواقع مع الوصف المتحمس الذي يدلي به النادل :

« ... كلا ، ولكن مجانيا ، انه فعل لم يبتعته شيء . هل تفهم ؟ ابتعاث ، انفعال ، شيء . الفعل المنزه عن الغرض ،

(٥) بروميثيوس مقيدا ص ١٠٥ .

ليس من النفس ، الدافع الذي بدون غرض ، ومن ثم بدون محرك ، الفعل الحر ، الفعل التلقائي ؟ » (٦)

نحن نجد الدافع في القصة واضحا كما هو الحادث في فعل النادل ، وهدفه هو هو نفسه في كلا الحالتين . ومن الواضح أنه جرى تعليبه في الذهن . زيادة على ذلك فإن أهميته السيكولوجية لا تزال بعيدة عن الكمال نظرا لأنه هوى رب من أرباب الاوليمب لا هوى انسان .

ومع هذا اذا فشل جيد في اقناع القارئ ، فإنه في « بروميثيوس مقيدا » التي وصفها واعتبرها مثالا على الفعل المجاني ، قد أقنع نفسه بأهمية وقيمة دراسة فعل من هذا النوع .

والتأمل في « اللا أخلاقي » و « الباب الضيق » لا يمكن إلا أن يعزز هذا الاقتناع . وفي هذا السياق نجد أن أكبر عنصر دال في وصف النادل للفعل المجاني يكمن في عبارة : « فعل بدون هدف ، (ومن ثم بدون سيطرة عليه) » . ان أفعال ميشيل واليسا تابعة لهدف من الاهداف ، وابطال الروايات أسيرو « مشروع » ما بالمعنى الحرفي لكلمة أسير . ولا تتناثر كلمات جيروم في بداية القصة عرضا . انها كلمات حيوية : « انني اضع كل قوتي في معيشتي واستغل

(٦) المصدر السابق .

ففضيلتي « (٧) . ولكي تتمكن النفس من أن تواجه عملية الاستنفاد هذه فإنها تحررها بالضرورة من هذه القيود ، ولهذا لا يجب تنفيذ أفعالها لصالح مشروع ما : الفعل المجاني وحده لن يقيم العقبات في وجه امتلاء النفس . والاشتياق إلى الفعل المجاني هو نتاج وعي بالوفرة والثراء داخل النفس .

وجيد بحثا عن تعريف الفعل المجاني في « كهوف الفاتيكان » يبدأ من هذه الفكرة :

« بدون (هوى) ، أنا مصنع : مجاني . وهو مثل الشر هو ما يسميه الإنسان : الشر ربما يكون مجانيا هكذا .

— ولكن في مثل هذه الحالة لماذا الفعل ؟

— تماما ! من قبيل الترف ، من قبيل الحاجة إلى اللهو واللعب « (٨) .

ولكن هذه بواعث ، والفعل المجاني وقد جرى تصويره بصرامة ، هو استحالة سيكولوجية . وقد اضطر جيد إلى الاعتراف بهذا في موضع آخر . ويوجه هيتيه الانظار إلى مجموعة « لا تحكموا » حيث يقول : « إن كل فعل يبدو إنسانيا وكأنه بدون دافع ، ما من فعل مجاني إلا وهو كذلك في الظاهر » (٩) .

(٧) الباب الضيق ص ٧٥ .

(٨) كهوف الفاتيكان ص ٣١٧ .

(٩) هيتيه ص ١٢٤ .

غير أن جيد كان مقيضا له أن يتخلى عن الفكرة تماما .
وهو يصف سلوك كيريلوف أحد أبطال رواية دوستويفسكي
« الشياطين » على أنه « مجاني تماما » : لكنه يقيم هذا
بقوله أنه يعني بكلمة « مجاني » « أن دافعه ليس دافعا
خارجيا برانيا » . ومن الواضح أنه يستخدم كلمة « مجاني »
بمعنى فريد بالنسبة له ، فهو يقرر بشكل نهائي أن « هذا
السلوك (عند كيريلوف) من أجل أن يكون مجانيا ، لا يعني
إلا يكون بلا دافع » (١٠) .

وهذا هو المعنى الذي سيستخدم به تعبير « فعل مجاني »
بشكل واع في « كهوف الفاتيكان » باعتباره متميزا عن الفعل
اللا ارادي في « بروميثيوس مقيدا » .

أن الفعل الحاسم لن تدفع اليه ظروف خارجية ، ونمط
التفكير الذي يحدد أو يعين الفعل بشكل طبيعي لا يستثار إلا
لكي يستبعد . وبالرغم من أنه ورد على لسان شخصية في
الرواية ، فإن من السهل أن تتبين أطروحة مماثلة عند جيد .

هنا مرة أخرى لا تعود مشكلة التحرر مسألة ذات
أهمية . ولكن مرة أخرى : « أن تعرف كيف تحرر نفسك
ليس شيئا ، الصعوبة قائمة في كيف تكون حرا » .

ولو كانت أفعالنا لا تدفع اليها الظروف ، فكيف يمكن
أن تندفع أصلا ؟ ونحن نجد أن الروائي في « كهوف الفاتيكان »

(١٠) المرجع المذكور ص ١٢٤ - ١٣٥ .

هو الذي يقترح نقطة بداية في محاولة لتجنب الجواب .
والتحاور معه يقترح عليه أنه ليس من الصعب أن تجد دوافع
للجريمة فيرد بأنه لا (يريد) أن يقدم أي دافع للجريمة ، فإن
ما يريده هو دفع المجرم وتحريكه . « أجل ، انني اتخذ موقف
المرتكب للجريمة مجانيا ، وارغب في ارتكاب الجريمة دون
دافع » . (١١) هذا المشروع يتصوره مؤلفه في حالة عقلية
مشابهة لتلك الحالة التي وصل اليها « السيد ديفوكوبليز »
تحت تأثير الخمر والسكر ، وهي تنهض على مجادلات مماثلة
بسميح بالاختلاف الهام من أن الجدل هنا يتم في اطار الادب :

« . . . المنطق ، النتيجة ، التي اقتضيها لشخصياتي ،
من أجل أن أؤكد انني اقتضيها لذاتها ، وهذا لا يكون طبيعيا .
ونحن نكون على تقيضه تماما للصورة التي رسمناها في
البداية . . . ولاول وهلة أرى أمامي المجال حرا . . . هل
تفهم ما تقدر أن تقوله الكلمات : المجال الحر ؟ . . . منذ الآن
لا أعود أفهم شيئا من هذه الكلمات ، انني أفهم كل انسان
مخلص ، انني اقتضي مالا يحمل شيئا ، ومن ثم أعرض أكثر
الامكانيات غرابة من تلقاء ذاتها . ومن ثم ليس الامر ما هو
اقائم على الصنفحة ، انني اتجاسر وأعطيها سيرورتها . ونحن
نصبح على ما يرام ! » (١٢) .

اذن فان الافعال المجانية سيؤديها الانسان المخلص ،

(١١) كهوف الفاتيكان ٣٥٠ .

(١٢) كهوف الفاتيكان ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .

الانسان الذي لا ينظر الا الى نفسه ، الانسان الذي تحلل
من روابط الاسرة والمجتمع والرسالة في الحياة والسمعة .
الانسان الذي ليس لديه ما يكسبه ليس لديه ما يفقده .
فهل يمكن تصور مثل هذا الانسان ؟ ربما . . . على
الورق .

ان « لافكاديو » ابن حرام ومن ثم يستبعد من الروابط
الاسرية . لقد ولد من دبلوماسي فرنسي وعشيقة رومانية
وتربى في بلدان عديدة على يد سلسلة كاملة من « الاعمام
والاخوال » من قوميات مختلفة ، وهو لا تربطه اية روابط
بأي بلد . وان اناقته الطبيعية ومكاسبه الساحقة تجعله
مغتربا في الطبقات الدنيا للمجتمع ، وتقص الوشائج وتاريخه
بصفة عامة يجعلانه مغتربا في الطبقات العليا : انه بلا طبقة
ينتمي اليها . وهو بدون مهنة ، غير ان هناك أسطورة تؤكد
انه ليس بحاجة لكي يكسب معاشه . وهو بلا دين ولا
قوانين خلقية تقليدية . ويجري تصوير طبيعة جنسيته بعناية
بشكل خاص على انها ملتبسة .

انه يتنقل كيفما اتفق بشكل او بآخر بين روما
وبرنديزي وهو يجد نفسه جالسا في العربة نفسها كصاحب
متجر في منتصف العمر متواضع مريض سخي ف نوعا ما
وبينه وبين لافكاديو لا توجد اية علاقة تلزم أيًا منهما .
منهما .

ويرى لافكاديو في الموقف الفرصة لارتكاب جريمة

لا دافع لها : وهو يستخدم هذه الكلمات عينها . وليست هذه هي المرة الاولى التي لف فيها خياله حول هذه الفكرة . فذات مرة تخيل نفسه يغتال سيدة عجوزا (أخطأ وحمل بصرتها عمدا) وفي تلك المناسبة وجد نفسه يتأمل في ضالة الحياة الانسانية وفي استعداده الذي يخاطر به بحياته اذا ما عرضت له أية نأمة جديدة بالاعتبار . ولكن من العبث أن نلتزم في (الخيال) بمثل هذا الفصل ، لان الانسان لا يستطيع أن يتكهن بما لا يمكن التنبؤ به ، وان مالا يمكن التنبؤ به هو الذي يحدث في الواقع . « ان الانسان يتخيل (ما سيحدث) ومع هذا يقبع ساكنا دائما . وما من شيء يحدث أبدا الا وكما يعتقد ... انه ما يستثار ... والانسان لا يفعل الا القليل ! « ماذا يعرف ! » كما لو كنت سأنسر (الخلق) ... محبة ذلك الذي يقدر على الوجود ... واذا كنت الدولة فأنني أنهي الامر » . (١٣)

هنا يشير لافكاديو الى دافع : « هذا هو ما يدفعني الى الفعل » . الخيال شيء رائع ، غير أن الخيال بطبيعته نفسها (يتكهن) ، وما يبحث عنه لافكاديو هو ما لا يمكن التنبؤ به بالضبط . ولما كان خياله يلهو بجريمة فليريزوار فانه يصبح أكثر اتضاحا أن ما يفتن لافكاديو فوق كل شيء هو ما لا يمكن التنبؤ به (في داخله) .

« كم هو بعيد ذلك الذي بين الخيال والفعل ! ... »

وهنا كم تكمن الاخفاقات « (١٤) .

ويمكن ابراز الاطروحة بصفة عامة . فعندما يتكهن المرء بان الانسان سوف يفعل أو سوف لا يفعل شيئا فعلى اي اساس ينهض هذا التكهن ؟ انه ينهض على تصور لطبيعة الانسان موضع الكلام وعلى افتراض ان افعاله ستتحدد بالضرورة بظروف سيتصرف ازاءها بطريقة يمكن التنبؤ بها . واذعان جيد قائم في ان مثل هذا التكهن لا يمكن التعويل عليه ، لان مثل هذا التكهن ينكر على الانسان الحركة الذاتية التي هي الاساس الوطيد لوجوده .

ولا يكفي تصور وجود هذه الحركة الذاتية ، واصالة هذه الحركة عند جيد لا يمكن أن تنهض الا بتجليتها ومن ثم يرتكب لافكاديو الجريمة .

وفي النقاش الذي دار حول « كهوف الفاتيكان » هناك قدر كبير قيل عن فشل جيد في تقديم مثال عن فعل مجاني اصيل . بل ان « هيتيه » يعترض على فشله في تقديم شخصية مقنعة سيكولوجيا في لافكاديو . ولكن لا يمكن انكار اهمية الكتاب لا لشيء سوى للآثر الذي تركه في جيل كامل من القراء .

وبطبيعة الحال ، هذا الكتاب هو قطعة أدبية متوهجة

(٤١) كهوف الفاتيكان ص ٣٣٧ .

عن رواية المغامرات . ان الكتاب عبارة عن (ملهاة) فكهة
بشكل كبير عن الكنيسة الكاثوليكية والماسونية . وتموج
الكتابة بشكل ابتعادا كبيرا عن تراث القرن التاسع عشر ،
غير أن تأثير الكتاب لا يرجع الى مثل هذه الاعتبارات ولا
شيء في براعتها السطحية يرقى الى قوتها .

طوال الكتاب ، خلال صفحات الهزل ذي النكهة
الواضحة ، والميتافيزيقا التجريبية تتردد (صرخة القلب)
الكبيرة :

« اننا متعارضون ... »

انني اتبع ظلي ... »

حتى انني ربما اعرفه ! »

هذه هي الاطروحات الكبرى في رواية « كهوف
الفاتيكان » ، ولا يقلل من قوتها وفعاليتها التحفظ الذي
تعرض به ، فالتحفظ نفسه الذي يعرض مثل هذه
الموضوعات في اطار السخرية والهزل يوحى بأن هذه
الموضوعات تشكل في المقام الاخير جدلا حيا ويزداد هذا قوة
كلما حاولت أن تتخفى .

« ان حياتنا يجري تقليدها بشكل ساخر » وربما
يحدث هذا أساسا بسبب « مجموعة صغيرة من أصدقائنا
وعلاقاتنا ... لا نستطيع أن نسمح لأنفسنا أن نهاجمهم » .

ولقد ظلت حياة جيد تقليدا ساخرا عدة سنوات . لقد قام
بقمع الحقيقة عن نفسه على حساب الغضب من أجل خاطر
أصدقائه ، وخاصة من أجل خاطر زوجته .

يقول في قاموس (ابستل) عن «كهوف الفاتيكان» :
« انني أبدو كما لو أنني لا أبدو الآن ! لا انني اكتب كتباً
مليئة (بالسخرية) (أو عن النقد ان شئت) . ولكن هذا
آخرها . فاذا كان من أجل القلة ، ان كان من أجل
نفسه فقط ، فان الوقت قد حان لتناول أوضح . لقد
حان الآوان ان نتناول « كوريدون » .

الفصل السادس

كوريدون

اذا كان جيد كان مستعداً لنشر « كوريدون » في
التو بعد نشر « كهوف الفاتيكان » فان نشوب الحرب
العالمية الاولى استبعد الفكرة من ذهنه دون شك . لقد
انغمس جيد قلباً وقالبا في عمل منظمة اللاجئين المتخصصة
اساساً في مهمة العناية باللاجئين البلجيكيين الذين تدفقوا
على فرنسا . ولقد كان هذا العمل شاقاً للغاية وخاصة
بالنسبة للاعصاب والانفعالات ، غير ان جيد لم يأل جهداً
في عمله ، وفي النهاية هزمه القلق الشديد . وفي ابان هذه
الفترة عاش الازمة الدينية التي ألهمت رواية « لماذا نمكويد
وانت ؟ » (١٩٢٢) التي بدا لاصدقائه فيها انه يعود الى
عقائده المسيحية ان لم يكن - في الحقيقة - واقفاً على
شفا الكاثوليكية الرومانية . وفي الواقع - حتى في هذا
العمل الاخير - فان وضعه اقرب بكثير الى النزعة الانجليكية
الصوفية عند دوستوفسكي ، وفي محاضرات جيد ومقالاته
- التي جمعت ونشرت عام ١٩٢٣ - يكاد يستحيل التمييز

بين دوستوفسكي وجيد الذي يعلق عليه .

في عام ١٩١٩ نشر جيد « السيمفونية الرعوية » .
وهذه الرائعة الصغيرة نالت النجاح الذي تستحقه : غير
أن جيد نفسه رأى فيها - بحق - مفارقة تاريخية ، ارتداد
الى فترة سابقة لرواية « كهوف الفاتيكان » . على أية حال
وضع جيد في عام ١٩٢٤ نهاية لكل مسامرة للتيار . وبالرغم
من محاولات أصدقائه العديدة لثنيه عن عزمه أجاز طبعة
تجارية لنشر « كوريدون » وكان جزء من « كوريدون » قد
طبع طبعة خاصة - في اثني عشرة نسخة - في أوائل عام
١٩١١ ثم طبعة ثانية خاصة لحفنة من الأصدقاء - في إحدى
وعشرين نسخة - عام ١٩٢٠ وأخيرا نشرت دار جاليمار
الكتاب في طبعة تجارية .

ونشر هذا الكتاب يعد عملا من أعمال الشجاعة ،
فليس كتاب « كوريدون » اعتذارا روحيا عن الجنسية
المثلية فحسب ، فهو أيضا اعتراف صريح وعام (بعادات)
جيد الجنسية الخاصة . ولقد أثرت هذه الأطروحات في
الجمهور حتى أن القراء فشلوا - بصفة عامة - أن يستخلصوا
أي شيء عدا هذا من الكتاب . ولكن في « كوريدون » شيء
أكبر من هذه العضلة بشكل ضيق . فإذا كانت « كوريدون »
اعتذارا عن الجنسية المثلية فهي أيضا اعتراف بإيمان منا
من جانب فنان كبير ، وهي عمل كبير من أعمال الفن . ولقد

اعتبر جيد حتى آخر أيامه بأن « كوريدون » أهم أعماله (١) ،
والكتاب لا يعرض كدعاية مباشرة بل كسلسلة من الحوار
بين شخصيتين خياليتين في إطار خيالي . ان الاطار
والشخصيات يجري التخطيط لها بخفة والشكل الفني ليمتد
تحت الثقل المطلوب منه أن يتحملة : غير أن شعورا حقيقيا
بالدراما مع هذا يتم ابتعائه . هذا هو عمل فنان . واعتراف
الراوي أنه اتخذ « احتياطات بلاغية معينة » رغم أنه يشير
في المقام الاول لاستخدامه البارع للاقتباس ، له تطبيق
اكثر عمومية وتصريح معقول بالتعبير عن الفكرة بشكل اكبر
او اقل منها .

ان معظم الكتاب مخصص للإجابة على اتهامين أساسيين
موجهين ضد الجنسية المثلية : أنها ضد الطبيعة وأنها
مضرة بالمجتمع ، ويرد جيد على كل من هذين الاتهامين على
أساس من التدليل العلمي أو التاريخي منه استمد ما يمكن
ان يسمى القضية العلمية أو الموضوعية للدفاع . لكن في
القضية يثير جوابه مجادلات هي مجادلات جديدة بصفة
خاصة : وفي هذه المجادلات يكمن الاهتمام الاول بكتاب
« كوريدون » .

يبدأ جيد فيورد كيانا مؤثرا من التدليل العلمي لاثبات
ان الممارسات الجنسية المثلية شائعة في المملكة الحيوانية
بأسرها . وهذه حقيقة موضوعية لكنها عند جيد مناسبة

(١) المذكرات ص ٢٨٧ .

رائعة لشن هجوم شنيع على التصور المحدود « للطبيعة »
التي يقتصر المجتمع المعاصر عليها . وحتى يشن هذا الهجوم
يطلب عونا من حليفين قويين للغاية : مونتني - الذي يمكن
أن نفترض أنه من صفه - والشخص الآخر لدهشتنا ولتأثيره
علينا هو باسكال .

باسكال أولا :

« انني أقدر أن هذه الطبيعة ليست في ذاتها عادة
أولية بقدر ما أن العادة هي طبيعة ثانية » (٢) .

ثم مونتني :

« ان قوانين الضمير التي تزودنا بها الطبيعة ساعة
مولدنا تتولد من العادة » (٣) .

ان المتحاور مع كوريدون يعترض على استخدام نص -
منتقى عفو الخاطر من باسكال لا شيء الا ليزود كوريدون
بتعلّة لاقتباس آخر من المصدر نفسه :

« ان طبيعة الانسان هي طبيعة شاملة ، (طبيعة
حيوانية) وليس هناك شيء لا يمكن رده الى الطبيعة .

وليس هناك شك في أن الطبيعة ليست هي العادة .

(٢) ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) ص ٢١١ .

والعادة هي التي تعمل عملها نظرا لانها تقيّد الطبيعة ،
وأحيانا ما تتغلب الطبيعة وتحصر الانسان في غريزته بالرغم
من كل عادة سواء للافضل أو للأسوأ » (٤) .

وعندما يقترح محاور كوريدون أن الجنسية المثلية
مشروطة (بوسط) خاص ، فانه يرد الهجوم ببراعة ويجد ،
براعة لا يمكن أن تمر دون انتباه لدى مؤلف مختلف عن
ياسكال ، يجد النص الكامل الذي يعزز موقفه :

« احلم في مجتمعنا ، في آدابنا بإمكانية قيام جنس بين
المتماثلين ، لقد لقن الجميع الجنس مع الآخر المفاير ، انه
شيء مخترق ، مستشار بشأن المسرح والكتاب والصحيفة
وافيشات الحائط واحتفالات الصالونات والشوارع (اذا لم
تستطع أن تحب كل هذا فانك تكون سيئا) هكذا كتب
دوماس الابن في تصديره لروايته (مشكلة المال) » (٥) .

بالاختصار ان الجنسية المثلية مستبعدة من مجتمعنا
لا بالطبيعة بل بالعادة . ومن الحق أن جيد نفسه لا يخلو
من تحامل وابتسار . ولكن حتى الابتسار في « كوريدون »
والملاحظ تماما ليس ابتسارا في صالح الجنسية المثلية ، بل
هو ابتسار في صالح الفنان .

وهكذا ، بالرغم من أنه يقول ان معظم الامم المولعة

(٤) المرجع المذكور .

(٥) كوريدون ص ٢١٢ .

بالحرب في التاريخ كثيرا ما كانت الامم التي ازدهرت فيها الجنسية المثلية ، فانه ليس لدينا ما يدعونا الى أن نفترض في جيد اعجابا خاصا بصفات الولع بالحرب (بصرف النظر عن الابتسارات التي يشارك فيها المجتمع والتي ينقدها) . ولكنه عندما يقول ان ما يسميه « أصداء من الجنسية المثلية » هي من الناحية التاريخية فترات الازدهار الفني العظيمة ، فانه يطلق العنان لتحمساته .

يقول ان الفترات الكبرى من الانتاج الفني يجب البحث عنها في اليونان قديما وايطاليا ابان عصر النهضة أو فرنسا في عصر النهضة وانجلترا في عصر الملكة اليزابيث والفرس أيام حافظ الشيرازي وروما في عهد أوغسطس ، أو فرنسا في عهد لويس الثالث عشر ، وهذه الفترات بالضبط هي الفترات التي كانت فيها اللوامة هي « الفترات الأكثر ظهورا » . ويمكنني القول الأكثرها رسمية « (٦) . وفي الحقيقة قد يقول الإنسان أن الفترات أو الأماكن الوحيدة التي لا يزدهر فيها الفن هي الفترات التي تكون فيها الجنسية المثلية مجهولة . وهذا موقف متطرف . وجيد في سعيه للتبرير يقدم نظرية ليست هي فحسب في صميمها نظرية « كوريدون » بل هي نظرية خاصة بتصوره الكلي للعلاقة بين الجنسية والفن .

(٦) المرجع السابق ص ٢٠٩ .

انه ضد الرأي الذي ينسب للجنسية غاية نفعية محض - مواصلة النوع - ويقول ان مثل هذه النظرة لا يمكن ان تصمد في وجه الهيمنة الشاملة لعنصر الذكر في المجتمع الانساني . وحتى لو كانت هناك نظرية غائبة للمسألة يمكن قبولها ، فان التكاثر لا يمكن ان يكون سوى غاية (واحدة) من غايات الجنسية والا كان التطرف الزائد للعنصر الذكري الذي لا يمكن ان تستنفده هذه المهمة مضيعة تصورا غريبا بالنسبة لهذه النظرة .

عندما تسود الاعتبارات النفعية - مثلا في التربية الجماهيرية - تكون المشكلة قد حلت بشكل مصطنع عن طريق القتل أو الخصاص ، فحل يخصص للقطيع ، وديك يخصص للدجاج وهكذا . ولكن الطبيعة لا تمارس الخصاص . فماذا يحدث للعنصر الذكري في الذكر غير المخصي ؟ يقول جيد ان هذا العنصر يصبح « خامة قابلة للتنويعات » أي مادة متعددة الجوانب . وهو يؤمن بأن هذا هو المفتاح : « لما نسميه رفع مورفين الجنس » (٧) . ومن بين المصادر المختلفة التي يدرجها جيد لتعزيز أو لتصوير قصده لانحتاج أن نشر هنا الا الى برجسون الذي وجد جيد عنده مصطلجات تقليدية جميلة لصياغة موقفه .

يميز برجسون في المادة الحية بين نمطين من الطاقة :

(٧) المرجع السابق ص ٢٢١ - ٢٣٠ .

اثارة الطاقة والارتقاء بالطاقة : « ان دور الطاقة المثارة هو رفع الطاقة الدنيا الى مستواها الحق بتمثل المواد العضوية . وهذه الطاقة تشكل نسيج المادة » (٨) .

وهذا هو الدور المميز للأنثى . ودور الذكر بالعكس ارتقاء بالطاقة حيث أن هذا الدور يرتفع على مثل هذه الانشغالات . ويوضح كوريدون وجهة نظره ويضرب عليها المثل بالإشارة الى خطبة ألقاها «بيرير» للدورة المشتركة السنوية للأكاديميات الخمس عام ١٩٠٩ ويصبح المتحاور معه أشبه بالكورس .

١٢ ان المعاني المتضمنة في هذا الخط من الفكر مؤقتة . ان النصيحة التقليدية للفنان هي : « اتبع الطبيعة أولا » . وهي نصيحة تحتفظ بصدقها بالنسبة لجيد : لكنها اكتسبت قوة جديدة ومعنى جديدا . لقد كانت الطبيعة عند الشاعر الانجليزي الكسندر بوب ومعاصريه - مثلا - مصدرا وضامنا للقيم النفعية (للانسان الشريف) والمجتمع البورجوازي المنظم الذي هو بيئته المناسبة . والعكس هو الصادق الحقيقي عند جيد . ولا يوجد شيء سوف يقوض القوة المقيدة والمحبطة للقيم الاجتماعية التقليدية على نحو سريع اكثر من مواجهة فقرها وبغنى الطبيعة .

وان متابعة الجدال في الاطر النفعية يعني تزييف

(٨) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

المسألة فالطبيعة ليست نفعية : فجمال القيم الميتة على جناح
فراشة حركة تلقائية عشوائية - ترف ، لعبة - « فعل
مجاني » .

وقد تزودنا الطبيعة بأمثلة عن مثل هذه الأعمال ،
لكن من طبيعة القضية أن هذه الامثلة لايمكن أن يتناولها
الفنان (كنماذج) . ومطلوب من الفنان وهو يتبع الطبيعة
الا يعبر عن (ما تعبر عنه الطبيعة) بل ان يعبر عن نفسه
(كما تعبر الطبيعة عن نفسها) اي بحركة ذاتية كاملة تنبع
من الوفرة ، والعمل الفني غزارة .

الفصل السابع

مزيفو النقود

في الاهداء الرسمي الموجه الى روجر مارتن دي جار يصف جيد كتاب « مزيفو النقود » بأنه « روايتي الاولى » وبالرغم من أن الطبيعة الثورية للكتاب في عين جيد تتجاوز بكثير المسائل التصويرية الخاصة (بالنوع الادبي) فان المسألة التصويرية قد طرحت بوضوح ومكانها في مقدمة الفعل .

لماذا رواية ؟ لان الرواية - في المقام الاول - تمثل بالنسبة لجيد ما اسماه جوليوس في كتاب « كهوف الفاتيكان » « المجال المفتوح » . انها تعجب الى جيد بشكل طبيعي صيحة القلب : « دع كل شيء يمكن أن يقع ، يقع » مع القرار :

« انني اريد كل عكس دون تحفظ » (١) .

ولكن اذا لم تكن هناك تحفظات لتأثير جوهر هذه

(١) المذكرات ص ٢٠ .

الرواية التي قصد بها - بوضوح - أن تكون نوعا من « الخلاصة » فإن لدى مؤلفها تحفظات هامة فيما يتعلق بطابعها .

لقد بحثت الرواية عن خلاصها دوما في التقارب الاوثق مع الطبيعة . يقول جيد انها لم تعرف اطلاقا « تباعد الحياة المتعمد » الذي يجعل (الاسلوب) ممكنا عند كتاب الدراما الاغريقيين - مثلا - أو مسرحيات كتاب القرن السابع عشر في فرنسا . مثل هذه المنتجات المؤسلة منتجات انسانية بشكل كبير : الا انها في الاعماق انسانية فحسب . انها لا تزعم انها واقعية وهي لا تدخل في منافسة مع تأثيرات الطبيعة : انها تكشف الحقيقة الجوهرية التي تكمن في الطبيعة عن طريق الفن .

يقول جيد ان هذا النوع من الامتياز قاصر الى حد كبير على المسرح وهو الآن يفضل ان يحاول في الرواية الصدق المؤسلب والانسانية المؤسلة التي لدى الشخصيات المسرحية مثل عطيل أو طرطوف .

وبطبيعة الحال ، لا يستطيع ان يستخدم الطريقة نفسها التي لدى كتاب الدراما في العصر الذهبي والذي يقوم فنهم الرئيسي على فن الاختيار والانتقاء ، وعليه هو ان يحقق غايات جمالية مماثلة بتطبيق وسائل فنية مختلفة على (نوع) أدبي آخر . ان الرواية في نظر اصحاب النزعة الطبيعية انما تعرض « لشريحة من الحياة » ، وجيد ليس

لديه ما يعترض به على هذه الصنعة . لكن المشكلة في رأيه هي ان الروائيين يقطعون الشريحة دائما في الاتجاه نفسه في الاطار الطولي . فلماذا لا تستقطع الشريحة بالعرض او بالعمق ؟ ويقول أما بالنسبة له فهو لا يريد أن يستقطع شيئا وهذا هو السبب الذي يجعل الرواية بلا موضوع او بالاحرى بلا موضوع (واحد) كما يقول المؤلف .

والجهد المبذول من أجل الاسلوب هو - لهذا - عام بشكل جوهري : انه الجهد الذي يبذل من أجل (الحياة المؤسلة) ولما كان جيد قد وضع هذا في الاعتبار فانه يتلاعب بفكرة الرواية (الخالصة) غير انه يتبين في التحليل الاخير ان هذه الصيغة انما هي صيغة مغرية اكثر منها صيغة بناءة . وعلى أية حال ، هناك (نوع) أدبي جوهري ادراك الحياة في اطار الاسلوب : ذلك (النوع) هو الملحمة . يكمن جوهر الطريقة الملحمية في نقل الواقع من مستوى الى آخر . ومسألة ما اذا كانت مثل هذه العملية مرغوبة أم لا ليست في ذاتها بالمسألة الهامة لانها محتمة ، فما من فنان يبحث عن عرض الحقيقة يستطيع ان يقصر نفسه على منظور واحد . والفكرة القائلة بأن جيد قد مارس ذات يوم عرض « مزيفو النقود » للقيام بدور بطل واحد - لافكاديو - سرعان ما تخلص عنها .

وبدلا من هذا نجد أن نص الرواية لا يخلق بالشكل السرد القصصي المباشر فقط بل أيضا عن طريق الرسائل

والمذكرات والحوار والمونولوج بل وحتى الاحلام حيث يجري تناول الواقع من وجهات نظر مختلفة ويجري عرض النص في اطر مختلفة مماثلة .

والحادثة التي تدور حولها أحداث الكتاب والتي يستمد الكتاب عنوانه منها هي مؤامرة اجرامية تتضمن استغلال عدد من اطفال أسرة طيبة من جانب عصابة تزيف . وخداع مزيفي النقود للاطفال يتم ليرمز الى حدث نمط معين من الادب .

ان التباعد عن الحياة الذي يستطيع ان يجعل الاسلوب ممكنا هو شكل من التجريد ، ويستخدم جيد كلمتي « يضيي طباعا مثاليا » و « يؤسلب » على انهما مترادفان . وهو لا يعتني بالشخصية كشخصية اكثر من عنايته بالحدث كحدث . واحتشاد الشخصيات - مثل احتشاد الاحداث - هو المادة الخام للفنان . ولا تكمن اهميتها فيما هم عليه بل فيما يكشفون عنه ، وما يكشفون عنه لا يتوقف عليهم بل على قوى الرؤية لدى الفنان .

حيث يستخدم الفنان بالفعل انموذجا فانه يبدأ باخضاع مظاهر الانموذج للحركة الذاتية : انه يفرض (على الانموذج من قبل) الحالة التي يظهر فيها الانموذج نفسه . وفي حالة شخصية مستمدة بشكل مباشر من الحياة ، تكون صعوبة قهر الحركة الذاتية للانموذج شديدة للغاية بل ربما تكون غير قابلة لان تقهرها ، وسوف يتحدى الواقع الذاتي

للانموذج الواقع الفني للشخصية ، وان وظيفة الشخصية هي ان تكون شفافة ، ولكن من طبيعة الانموذج ان تكون ضبابية . لهذا فانه غير مسموح سواء للشخصيات او للاحداث ان تفرض نفسها على المؤلف واذا كانت مهمة فذلك لانه هو الذي اختارها ، غير انه قد يختار غيرها بطريقة مماثلة . من الناحية النظرية - على الاقل - يبدأ الكتاب بطريق الصدفة ويضطرر بطريق الصدفة وينتهي بطريق الصدفة .

« انه يستطيع ان يستمر .. بالكلمات التي تحدد (مزيفي النقود) » (٢) .

فاذا لم يكن لرواية « مزيفو النقود » موضوع (جزئي خاص) فان السبب يرجع الى انه اذا كان هناك أي شيء يمكن ان ينفصل على نحو كاف عن العمل الذي يمكن تميزه على أنه « موضوع » فانه سيكون غريبا عن تصور جيد للعمل الفني نفسه . بقول آخر ، ان العمل الفني هو موضوعه عينه ، وهذا - بلا شك - هو السبب الاساسي للحيلة التي يلجأ اليها جيد على نحو متكرر : انه يصور في الرواية الكاتب وهو يعمل . في كتاب « مذكرات اندريه والتر » نجد والتر مؤلف كتاب (المستنقعات) ، وفي رواية « مزيفو النقود » نجد ادور يكتب « مزيفو النقود » وهكذا دواليك . لكن هناك شيء آخر : ان خلق الفن هو خلق الاسلوب ، والاسلوب هو واقع الفنان وحقيقته .

(٢) مزيفو النقود ص ٤٧٢ .

ينقل الفن المؤسلب الواقع بطريقة الانكسار في الموشور الزجاجي . ان فن الروائي أشبه بفن صاقل الجواهر الذي يقطع الجوهرة ليجعلها تعكس مزيدا من الضوء . والشخصيات المختلفة و (البيئات) المختلفة في « مزيفو النقود » انما تمثل بالمعنى الحرفي وجهات نظر مختلفة .

واحاطة كل وجهات النظر المختلفة هذه برؤية واحدة هي معيار مدى وتعدد إمكانات الفنان . ومن الخطأ أن نفكر في « مزيفو النقود » - كما فعل بعض النقاد - على أنها تجميع (لتجسيدات أفكار) جيد جميعا . فما من شخصية الا وهي أبعد ما تكون عن أن (تمثل) جيد ، والرواية ليست تجميعا بقدر ما أن النقطة المتعارضة ليست تجميعا .

والاطروحات التي في « مزيفو النقود » ليست اطروحات جديدة عند جيد وهي لا يجب أن تكون كذلك . والجدة في الطريقة التي تعرض بها هذه الشخصيات هي التي تبدلهم فيعاد خلقهم أدبيا . (طريقة) الكتاب هو الخلق الحقيقي لجيد في « مزيفو النقود » . وما هو هام في الكتاب ، ما يدور عليه الكتاب - (موضوع) بقول آخر - ليس أي واقع متقبل أو مفروض ، بل التباعد بين مثل هذا الواقع وادراكنا عنه :

« منافسة العالم الحقيقي والعرض الذي نقوم نحن بعمله » (٣) .

(٣) مزيفو النقود ص ٢٩٧ .

ولا يوجد شيء أكثر بساطة من الزعم بأن على الواقعي أن يقترب أكثر من الحقيقة وهو يقترب أكثر من « الواقع » فما يقترب منه ليس إلا صورة من الواقع وهي صورة ليس فيها ما يجعلها جديرة بالثقة أكثر من غيرها . الوقائع هي هدايات لا يعول عليها للحقيقة لأنها في جوهرها مضللة . وقبل أن تقدر معنى الواقعة ، قبل أن تفهم طبيعتها الحقيقية ، يجب أن نقيمها تقديرا ، وعملية التقييم هذه لا يمكن أن تبدأ بالوقائع ، يجب أن تبدأ بالأفكار :

« ان الواقعيين ينقلون الوقائع ، ويوفقون الوقائع لأفكارهم . ان برنار شخص واقعي . واخشى الا يستطيع ان اتحدث معه » (٤) .

ولا يمكن لشيء أن يكون أكثر وضوحا وربما أكثر عدلا من هذا التأكيد للحركة الذاتية لدى الفنان . ولكن هناك شيء في الموقف الذي قصد منه جيد أن يكتب «مزيفو النقود» ليس ببساطة الاعتراف بالنسبية التي يبدو أنها قامت عليها .

لم يحدث من قبل أن اعتنق جيد نفمة قاسية مثل تلك النفمة التي في « مزيفو النقود » فتصوير شخص ذي رسالة أدبية معقولة من كتاب « كهوف الفاتيكان » - مثلا - جرى بنوع من الازدراء الفكه الذي يحض على المشاركة

(٤) المرجع السابق .

الوجدانية أحيانا . أما تصوير « باسافانت » في « مزيفو النقود » فقد جرى بكراهية حقيقية . ووصف غداء ادوار مع مولينييه خشن لدرجة الوحشية . وتقوى « فيدل » مدبرة المنزل يصبح بغیضا بالاستغلال البشع لراشيل .

ونادرا ما يقال ان جيد كاتب فكه عظیم . وكتاب « المستنقعات » على سبيل المثال يجب أن يكون من أكثر الكتب التي الفت فكاهة . وهناك فكاهة من نوع ما في رواية « مزيفو النقود » ولكن نادرا ما تكون الفكاهة أكثر مرارة مما هي على لسان آرماند - الروح الحساسة التي فيها يتخثر لبن الشفقة الانسانية بالاشمئزاز .

ان الهجوم على الرياء ، والتنديد بالحقيقة الدنيئة الكامنة وراء المظاهر الموقرة أمور ليست جديدة ولا أصيلة عند جيد . والمرارة الخاصة لرواية « مزيفو النقود » لا يجب شرحها بأن الرياء قد سمح له ان يفرض نفسه . بل يجب شرحها بأن الحقيقة ، او على الأقل الايمان الصالح ، ممنوعة او غير بيّنة . وهنا شيء أكثر من مجرد اختلاف في التأكيد .

ولكي نفهم هذه المرارة ليس علينا الا ان ننظر في حالة جيد العقلية في وقت كتابة « مزيفو النقود » . لقد حكى لنا ان كل كتابه هو دعوى قضائية ضد نفسه موجهة الى أولئك الذين يعتبرهم عزيزين عليه وخاصة زوجته بطبيعة الحال .

ان كل سطر كتبه قد كتبه لها ، وكل كلمة موجهة اليها بأمل تعليمها ان تفهم ودفعها الى الففران ، وتمكينها من محبته . لقد تشكلت شخصيته كلها بمحاولة التطابق مع الصورة التي يعتقد انها تجدها مقبولة . وهذه الصورة هي التي ظل حتى تلك اللحظة سجيناً لها . وما رفضه في «مزيفو النقود» ان يرسم نفسه على هذا الفرار الا فعلا من افعال الانعتاق . وهو من اجل الحب قد قبل تسوية اخلاصه كفنان : لكن الثمن كان باهظا بشكل لا يستطيع الحب ان يدفعه . والاخلاص هو رهينة الحب ، ومرة اخرى فان العمل الفني تحرر ، ولكن ما من هزة فرح تصاحب هذا التحرر ، لانه تحرر من الحب .

وفي مذكراته عن « مزيفو النقود » التي احتفظ بها وهو يكتب الرواية والتي تتضمن تأملاته اليومية في تقديمها يشير عملية لم يصفها في الواقع بالتفصيل في « مزيفو النقود » لكن تأثيرها مع هذا يحيط ويهجن - في الواقع - على العمل كله . فبعد ان أشار الى مفهوم « البلورة » الذي شهره ستندال يواصل الكلام فيقول : بينما « البلورة » التي يتحدث عنها ستندال تكون فجائية فان شجن الحب يوجد في العملية العكسية « الشغل المتد العكسي الا وهو شغل (التفكك) » (٥) .

وفي هذه العملية يلعب دين مادلين دورا حاسما . ان

(٥) المذكرات ص ٢٠ .

جيد يشعر بفيرة من الله الذي يبدو له في ضوء منافس
منتصر بوسيلة غير عادلة . وهو لا يتعلم كراهية هذا المنافس
فحسب ، بل كل شيء مستمد منه . وهو يكره فوق كل
شيء حائط التعصب الاعمى والتحامل والابتسار الذي يحول
بينه وبين أن يحظى حتى بمن يسمعه بعدالة قبل أن يحكم
عليه .

وفشل أصدقائه المسيحيين - وخاصة مادلين - في
الاستجابة الى الدعوى الطويلة والحارة للفهم المتعاطف الكامن
في كل شيء كتبه يبدو غير عادل بسبب التضحيات التي بذلها
ليستبقي مشاعرهم (هم) و اظهار تقدير اصيل لوجهة نظرهم
(هم) . ولقد أوصل الكرم الى حد تشويه النفس . فقد
دفعته رفته الى كبت الحقيقة ، والآن واضح ان الرقة لن
تجدي . ولو يقدر له ان يعيش حياته ويتحدث عن الحياة
حسب ما يراها أي اذا كان (نفسه) اذن فان التنازلات التي
اتخذها حتى هذه اللحظة يجب ان تتوقف . وهذه هي الروح
التي تسيطر على قصة الليدي جريفيث عن غرق السفينة
« بورغونيا » . فتقص كيف ان البحارة في قارب انقاذ
مزدحم بمن فيه قد قطعوا أيدي او اصابع الناجين الذين
كانوا يحاولون ان يعيلوه .

لقد أحرزت الليدي جريفيث قوة جديدة ، او على
الاقل صلابة جديدة من خلال زوال الوهم عندها ، وكذلك
الامر مع جيد . والصراع الطويل للتوافق مع اطار قيم مادلين

وعالم مادلين قد انتهى . لقد فشل التوفيق في تقديم أساسي للتصالح والآن قد رفض التوفيق أو الصالح . والاحباط الذي شعر به جيد ازاء عماء أصدقائه البورجوازيين المحترمين - وهو عماء مزغوب - يحل محله شعور بالكراهية، فالمجتمع عفن حتى النخاع .

وجيد يتقبل وصف تقاده لعمله على أنه عمل من أعمال التفكك : ولكنه يشير الى أن ما يتحلل ليس سوى « مركب واقعي ، حطام من الاخلاق المنحطة والاحكام المبتسرة » (٦) .

ومع هذا اذا كان جيد قد استمد قوة معينة من زوال الوهم هذا فانه قد فقد ما كان حتى ذيك الوقت أكبر الهام له ككاتب . وحالة الحوار التي لازمت ابداعاته العظيمة لم تعد تلقائية وحيوية . والمحاولة المبدولة لانعاش التوتر الجدلي في « اللا أخلاقي » و « الباب الضيق » عن طريق شخصيتي جنيفيف وروبرت توضح هذا بجلاء شديد .

وفي الحقيقة لم ينتج جيد بعد رواية « مزيفو النقود » - بالرغم من أنه عاش وكتب لأكثر من ثلاثين سنة أخرى - شيئاً يرقى كأدب خلاق لرواية « مزيفو النقود » والأعمال التي سبقتها . ومذكرات رحلاته في أفريقيا الاستوائية الفرنسية - « الى الكونغو » (١٩٢٧) ، « جولة في تشاد » (١٩٢٨) - هي روائع كسرد صحفي ، وهي لها تأثير عميق

(٦) رسالة الى روفير من ٥٥٨ - ٥٥٩ .

على قرائها الاولين ، غير انها ليست في جوهرها أعمالا فنية
وقيمتها محلية مرتبطة بوقتها أكثر من أعمال جيد الكبرى .

والشيء نفسه يصدق على بعض مقالات جيد النقدية
العديدة . وبالرغم من أن الكتب : « ذرائع » (١٩٠٣)
و « ذرائع جديدة » و « حادثات » (١٩٢٤) تحتوي على
قدر كبير مما له قيمة دائمة ، وبالرغم من أن كتاباته عن
« شوبان » (١٩٤٨) أو « بوزان » (١٩٤٥) قد نالت
تعليقات حارة من الاخصائيين والناس العاديين على السواء ،
فقد كان علينا أن ننتظر حتى ينشر « تيسوس » عام ١٩٤٦
حتى نجد انجازا مقنعا حقا بالمعنى الخلاق المحض .

ومع هذا ربما كان هناك عمل واحد في كل انتاج جيد
اقد حقق عملا مخدرا : « روبرت أو المصلحة العامة » (١٩٢٩)
بمنتهى الصراحة يمكن القول أن جيد عندما كتب هذه الدراما
المبهرجة عن المسغبة الصناعية لم يكن في وعيه بالمعنى الحرفي .
لقد استسلمت هذه النفس في سنوات قليلة من حياة طويلة
الامد لداع غير داعي الادب .

الفصل الثامن

جيد والشيوعية

لم يلتحق جيد اطلاقا بالحزب الشيوعي ، وهو بالمعنى الضيق السائد الآن عن هذه الكلمة لم يكن في الحقيقة شيوعيا على الاطلاق . ولكن هناك مقتطفات من مذكراته التي نشرها عام ١٩٣١ و ١٩٣٢ ترقى مع هذا الى اعتناق عام لقضية الشيوعية و اعلان التضامن مع الاتحاد السوفيتي .

« انني اريد أن أصرح علانية بتعاطفي مع الروس » (١)
« ان كل قلبي يصفق لهم » (٢) .

« انني اريد أن أكرس حياتي لكي أوكد نجاح الاتحاد السوفيتي ، وانني اعطيه تأييدي » (٣) .

من الحق انه كان على جيد أن يضع عقبات كبيرة على طريق الشيوعية ومن هذه العقبات نجد عقبة أساسية هي

(١) المذكرات ص ١٠٦٦ .

(٢) المذكرات ص ١٠٤٤ .

(٣) المذكرات ص ١١٢٦ .

بلا شك نقص الحس التاريخي الذي يرجعه جيد الى تأثير
مالا رمية والجماليات الرمزية (٤) عليه كما عبر عن هذا
في خطاب الى شلومبرجر الذي أعرب عن دهشته «لانتقالب»
جيد الفجائي . فالرمزيون الذين أحاطوا مالا رمية لم يكن
لديهم الا احتقار لكل ما ليس « مطلقا » وما يمت الى التاريخ
والى الواقع اليومي لعالم متغير ليس له مكان في العالم
الصافي عالم الفن . وهذه النزعة فهم منها انها رد فعل عنيف
ضد النزعة الطبيعية في الفن : لكنها تستبعد بطبيعة الحال
كل المسائل الاجتماعية من اهتمامات الفنان والتي كان ينظر
اليها على أنها مجرد « أمور عارضة » .

وبعد أربعين عاما شعر جيد بأنه يدفع غاليا مقابل
مثل هذا الاستبعاد (٥) وخاصة وان سمعة هواية الفن التي
أحرزها نتيجة قناعاته الشابة تعوقه في أوجه نشاطاته الحالية
بأن يكون لها إحياءات أو مدلولات معادية ممكنة لم يأخذها
أخذا جادا تماما (٦) .

ومن المؤكد الآن ان الدوافع العفوية للايام الخوالى قد
اكتسبت لأول مرة معنى واضحا متعلقا بالفرض والاتجاه :

(٤) وان كان يتحدث في موضع آخر انه معاد للطبيعة التاريخية

انظر : المذكرات ص ١٢١٨ ، ١٢٣٧ .

(٥) المذكرات ص ١٢٣٧ .

(٦) انظر رسالة الى جان جيونو في الادب الملزم ص ١٣ - ١٤ .

غير أن الاتجاه نفسه ليس جديدا . وقد اعترض جيد على وصف اعتناقه للشيوعية بأنه « انقلاب » ، بأن افكاره ومشاعره كانت دائما تقدمية - بل حتى ثورية - وهي لا تزال كذلك : ولكن بينما كان في الماضي يتخبط نحو الامام بطريقة غير بصيرة « . . . فأنني في الوقت الراهن أتقدم ولدي اتجاه نحو شيء ما » (٧) .

وقد أعقب هذا النص تنصل من أي التزام سياسي ورفض الانضمام الى أي حزب : ولكن دلالة ما يسجله هنا لا يحسب ضده . وظروف البشرية في العالم لم تعد تظهر هنا الآن مسألة من مسائل الفائدة الخلقية فحسب أو في الحقيقة مسألة من مسائل الفائدة المحلية بل كقضية سياسية، وبعد أيام قليلة سلم بهذا . انه يعترف الآن بأن آراءه (قد) تغيرت . وبينما شعر دائما حتى هذه اللحظة ان المشكلة الخلقية أكثر إلحاحا من المشكلة الاجتماعية ، وأن على الانسان أولا أن يغير الانسان قبل أن يستطيع أن يغير المجتمع، فانه يرى الآن ان هذه القضية ليست قضية حقيقية . ان التجدد الخلقى للانسان مهم كما هو الحال دائما ، لكنه يراه الآن كهدف للثورة الاجتماعية لا كوسيلة لها .

ومع هذا مهما كانت مقاصد جيد طيبة - كما كان يعرف هو نفسه تماما - لم تكن لديه مواهب ممتازة للسياسة . ومن المؤكد أنه لم يكن ولم يزعم أبدا بأنه تلميذ

(٧) المذكرات ص ١١٣٢ .

مقتنع بماركس . لقد بذل بعض المحاولات حتى يآلف الكتب الكلاسيكية الماركسية : ولكن دون نتيجة كبيرة . وعندما كتب شيوعي تشيكي شاب يهنئه على أنه خص ريكاردو عالم الاقتصاد صفحات كتبها « بروح من الماركسية الخالصة » جاء رد جيد فصيحاً :

« هيا ، هذا هو الافضل ! هكذا كان ! ولكني أرجوكم حتى لو كنت ماركسيا ان تتركوني هكذا دون ان اعرف » (٨) . ان الكتابات النظرية الماركسية لاعلام الماركسيين الكبار لم تلعب الا دورا بسيطا أو لم تلعب دورا على الاطلاق لحمل جيد الى الشيوعية . واذا جاز لنا أن نتحدث بدقة لقلنا ان الشيوعية عند جيد لا تمثل قناعة على الاطلاق ، انها ايمان ، وهذا الدين ليس هو الآخر بالجديد فهو يبدو عند جيد مسطحا وشائعا معا . ومع هذا كانت فكرته جريئة ، فكرة أنه سعيد أن يضع هذا الايمان في حماية اسم الشيوعية ، ألم يكن لينين نفسه هو الذي تحدث عن « الروح الديمقراطية الثورية للمسيحية البدائية » ؟ . (٩)

ولما شعر جيد بيقين من جانب مثل هذه السلطة غير المشكوك فيها شعر بحرية لكي يتوسع ، ويقول ان ما حمله الى الشيوعية ليس ماركس بل الاناجيل :

(٨) المذكرات ص ١٢١٣ .

(٩) المذكرات ص ١٢٢٨ .

« انها تعاليم الكنيسة الانجليكية هي التي جعدوها - انطلاقا من الغرور - تسيطر على كل تكويني وهم الذين القوا في ذهني الشك في قيمتي الحقيقية ، احترام الآخرين ، لذاكرتي ، ولقيمتي ، وهم الذين دعموا في نفسي الاحتقار ، النفور (الذي كان دون أي شك فطري في) لكل امتلاك حقيقي ولكل احتكار » (١٠) .

ان ما كان قد فكر فيه لينين لو كان قد وجد نفسه يرعى مثل هذا الاعلان هو الى حد ما قد أوحى به صعوبة واجهها جيد وعزاها فحسب الى سوء الفهم :

« ان الفكرة الوحيدة للدفاع هي انه يجب الدفاع عن المسيح وجها لوجه مع الرفاق الشيوعيين ، ولكن هذا يبدو لي مستحيلا » (١١) .

ان عدو العمال هو الدين القائم على المؤسسات الكهنوتية بكل اساقفته وعقائده القطعية وتحالفه التقليدي مع السلطة المدنية والثروة . لكن الكنيسة قد خانت المسيح ، المسيح الذي علم ومارس الانسانية والمسغبة والمحبة الغامرة للبشر الآخرين .

لقد أدرك جيد حظه الكبير - دون ما راحة بل بشعور

(١٠) المذكرات ص ١١٧٦ .

(١١) المذكرات ص ١١٧٨ .

حتى بالاثم (١٢) - وحاول بشدة ان يفهم موقف الثورية البروليتارية الاصلية . وجاءت خيبة امله من نقص كبير في هذه الثورية بالاهتمام بالمسائل الروحية العميقة التي يملأ بها شخص المسيح الانجليكاني العقل والقلب . لكن الامر مفهوم . فوق كل شيء لا يجب توجيه لوم يمكن أن يستغله أعداء الشيوعية كذريعة لضرب روسيا . ان أعداء الشيوعية دائما يهتمون الشيوعيين باهمال القيم الثقافية والروحية لصالح التعلق التام بالاشياء المادية . وقد اندفع جيد لتلافي هذا الهجوم فاحتج مرارا ضد جورده . وقد اصر على ان الاتحاد السوفييتي لا يهمل الجوانب الثقافية أو الروحية للحياة الانسانية ؛ ولكن في الظروف الراهنة من الطبيعي ان يعني نفسه بالمشكلات المادية (أولا) .

وعلى أية حال كثيرا ما أدلى جيد بهذه النظرة حتى أن الانسان لا يملك الا أن يشعر بأن هناك قلقا ما وراء العدوان وحاجة الى التأكيد لنفسه اذا اقتضى الامر .

ولقد كانت حساسيته بالنسبة لنقد الاتحاد السوفييتي مرضية . وخلال سعيه لتدعيم قناعاته او كبت اعتراضاته ارتد الى مجادلات أصبحت مألوفة منذ ذيك الوقت . هل يتخيل أعداء الشيوعية أنهم بوصم الاتحاد السوفييتي سينجحون في تحليل بشاعة مجتمعات أوروبا الغربية ؟ ثم جاء

(١٢) المذكرات ص ١١٨٩ .

النداء الشهير للمستقبل : بطبيعة الحال ليس كل شيء على ما يرام في الاتحاد السوفييتي (الآن) : لكن الاتحاد السوفييتي - على عكس الديمقراطيات الغربية - هو على الأقل على الدرب الصحيح ويتحرك نحو الهدف الصحيح .
بدلاً من التنديد بأشكال النقص فيه يفضل بنا أن نساعد على تحقيق أهدافه ، ومن العبث أن نعرض ذلك الهدف على أنه قاصر على تحسين الظروف المادية للوجود . ومما لا شك فيه أن الكفاح المادي هو العامل المحدد في السياسة الشيوعية هذه المرحلة ، لكن هذه ليست سوى حقبة مؤقتة أما الذي يهم فهو الهدف .

ان تمسك جيد بالشيوعية كثيراً ما يفسر بحاجته الى يدور حول محور « قضية » ما . وحدث مقارنة هذا (بتقاربه) المتلاشي السابق من (العمل الفرنسي) . وفي حقيقة ليست هناك الا رابطة واهنة بين الحالتين فان تناق جيد العاطفي للقضية الشيوعية يرجع الى سوء فهم - كان أكثر معقولية منذ ثلاثين عاماً عما هو اليوم - بحث به يائسا وبشكل مرضي الى ان لم يعد قادراً على ان يدع نفسه : على الأقل في مسألة الاهداف - لابد أن مسألة بدت لجيد - انه لم ينضم الى الشيوعيين بأكثر مما سم الشيوعيون (له) !

لم يكن اسم لينين او ستالين معروفا خارج أرشيفات وليس السري للقيصر ، والثورة البلشفية ثورة أكتوبر

وسط سحب المستقبل تبدو بعيدة ، حتى انها لم تكن تعدو أن تكون أكثر الاحلام ضبابية في عقل قلة من المتعصبين ، عندما وضع جيد على لسان ميشيل اعترافا بالايمان لم يستطع اطلاقا فيما بعد أن يتنصل منه . ولقد سبق لنا أن أشرنا الى هذا الاعتراف بالايمان في سياق خاص : لكن دلالة ليست قاصرة على سياق واحد وليست محتوياته قاصرة على مقال مفرد . لم يكن الامر جديدا تماما في عمل جيد - حتى حينذاك : ولكننا نستطيع - من أجل الاقتناع - تصويره من فصل قصير في « اللا أخلاقي » .

فلنتناول أولا النقاط الواضحة . هناك الرعب المتزايد من كل نوع من أنواع الترف بل وحتى الراحة التي شعر بها جيد دائما ، وان كانت تستمد معنى جديدا أو تزيد من الكثافة من الوجود المرتبط بسياق اقتصادي واجتماعي . وهناك الارباحية التي لا تلقى ترحيبا كبيرا من جانب الحنو المسيحي ، وقد أحيطت بشعور بالخجل بسبب الجور الذي يعطيه (ومن يشبهه) شعورا بأنه زائد عن الحاجة بينما يدور الآخرون حولها . ان شعوره بالاثم الشخصي هو الذي يعطي مسحة لاعلانه :

« لقد أردت أن أخترق الحائط وأترك الزوار يتزايدون » (١٣) .

(١٣) اللا أخلاقي ص ١٥٨ .

مثل هذه النصوص في حد ذاتها وان كانت جزءا حقيقيا من جيد ليست مصطبغة بطبيعته (بصفة خاصة) انها نصوص مفعمة بالانسانية ومشربة بحس اصيل بالاثم الطبقي، لا الثوري .

وربما كان الاقرب الى ماركس اشارة جيد الى (اغتراب) البروليتاريا عن الجزء الانساني لاعمالها . ان الاثر المشلوح من الانسانية الخاص بالعمل وقد اخذ بدون فهم وبدون حماس ولا يكون الا من اجل ضمان البقاء المادي، هو أطروحة من الأطروحات الرئيسية في النظرية الماركسية، ويردد جيد كلام ماركس عندما يقول : « ان العمل كله الذي لا يكون لعبا أمر يدعو للثناء » (١٤) .

لكن النغمة الجيدة البارزة تتضح في كماله هذه الفقرة:

« لقد كنت أحلم لكل واحد بهذا الفراغ الذي بدونيه لا يمكن أن يتفتح أي شيء جديد أو حتى أي شيء سيء وأي فن. » أو في الصيغة الكبرى :

« ماذا يستطيع أن يقدر عليه الانسان ثانية ؟ » (١٥) .

وبعد انقضاء نصف عمره لم يتغير شيء : ولكن الآن « والرغبة تلهم الفكرة ، يصف جيد أهدافه نحو الشيوعية .

(١٤) المرجع السابق .

(١٥) المرجع السابق ص ١٤٨ .

ما هي الاهداف الاخرى تلك التي لا تكون مأساويا غير
جديرة بالتكريس الذي بعثته والتضحيات التي يدعو اليها ؟

ان جيد بعد انقلابه الى الشيوعية يندد بجور موقفه
كما فعل منذ ثلاثين عاما سابقة ، والآن كما كان آنذاك يتعاطف
مع التعاسة المادية للفقراء : ولكن ما يهمه ليس مغبتهم
المادية او لا وأخيرا . وبطبيعة الحال مما يبعث على الدهشة
أن صوت الفقراء يجب ان ينجح أخيرا في أن يجعل نفسه
صوتا قويا . لكن المسغبة ليس لها مطلب استثنائي منا .
بطبيعة الحال يجب أن يتخفف الانسان من المسغبة « مثل
نبات يجب علينا أولا ريه (١٦) لكي يتاح له ان يزهر »
لكن جيد مهتم بالازدهار نفسه .

وهذا بالنسبة له هو معنى التجربة الشيوعية . ان
هدف ومصير الاتحاد السوفيتي هما أن يحدث « ذلك
الازدهار الذي يبدو لي أحيانا (السبب الكافي) للانسانية » (١٧)

ان جيد وقد أقام حسب قناعته مجموعة الاهداف
بين الشيوعيين ونفسه ، يشعر بأنه قادر بصفة خاصة
— وهو يقدر جهود الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي وغيره —
أن يلح على المكان الحق . وبالرغم من أن المشكلات المادية
قد تزعم أن لها الاولوية مؤقتا فان الاتحاد السوفيتي يعيش

(١٦) المذكرات ص ١٢٣٣ .

(١٧) المذكرات ص ١١٣٩ .

أساسا لكي يرعى « هذا الانسان الجديد » الذي يستطيع
أن يكتسب « روحا جديدة » (١٨) .

وكما أنه من سوء الفهم — أو سوء العرض — بالنسبة
للاتحاد السوفييتي اتهامه بوضع الأولوية لا الأفضلية على
الاشياء المادية فان من الخطأ أو الزيف أن نرى في الشيوعية
التضحية بالفرد لصالح المجموع . وطالما أنه قد سمح لجيد
أن يصوغ فروضه وتعريف (الفردية) و (الشيوعية)
بما يلائم أغراضه بتلك الحالة من الاستقلال التي تقوم على
الجهل بالحقائق ، فانه يكون قادرا على الرد على اعتراضاته
وعلى قناعته . يقول جيد ان الذين يفشلون في فهم الامور
هم أولئك الذين يرون تنافرا بين الفردية والشيوعية .

« اذا لم اشعر بتناقضات بين الموقف الشيوعي والموقف
الفردى ، اليس في ذلك دليل على ان هذا التناقض مازال
نظريا ووهميا ؟ » (١٩)

وهكذا هل هناك على الاقل تناقض (نظري) ؟ لا يهم
الامر . ان جيد ينحى هذا جانبا . انه لا (يشعر) بأي
تناقض ، والشعور أساس افضل للعمل من استجداء
المنطق . ومن الصعب بالنسبة لجيد في اطار العقل هذا ،
أن يفهم كيف يمكن لاي انسان ان يعتقد ان مبادئ الشيوعية

(١٨) الادب الملزم ص ٦٠ - ٦١ .

(١٩) الادب الملزم ص ٧٢ .

من جهة ، ومبادئ النزعة الفردية من جهة أخرى ، متطابقة .
وحتى على مستوى المصلحة الذاتية هذه المبادئ لا تتصارع .
يقول جيد انه ليس من صالح الجماهير البحث عن نزع
الصفة الفردية Désin dividualiser عن الفرد (٢٠) ،

ولكن ليس دفاعا عن مصالح الجماهير كجماهير ما تدفعه
اليه كل غريزة من غرائزه . وكما أن الغاية الحقيقية للثورة
المادية هو انتاج الثقافة أو الحضارة الاصلية ، فان الغاية
الحقيقية للثقافة أو الحضارة الجماهيرية (بأوسع ما في
المصطلح من معنى) هو انتاج الافراد الاصلاء . (٢١)

وطالما ظل تعلق جيد بالشيوعية فان هذا الانفراق
أو التناقض الظاهري كان مسألة حياة وموت بالنسبة له .
وهو يردد هذا دون كلل كما لو كان يريد أن يقنع نفسه :

« انني افضل ان أظل فردانيا حتى الاعماق ولا اقبل
أن اكون شيوعيا بمساعدة الشيوعية نفسها » (٢٢) .

ولقد ذهب — حتى في سياقات بعيدة للغاية عن المجادلات
السياسية — الى أن الانسان عندما يكون فرديا يفيد أكثر
في خدمة المصلحة العامة . والآن لم يكن عليه الا أن يضيف:

• (٢٠) المذكرات ص ١٢٣٢

• (٢١) المذكرات ص ١١٣٥

• (٢٢) الادب الملتمزم ص ٨٥

في المجتمع الشيوعي تستطيع فردية كل عضو في المجتمع أن تحصل على تطورها الكامل .

فاذا جرى اقرار هذا الانفراق أو التناقض الظاهري فانه لا يوجد سبب يدفع الشيوعي المخلص أن يرتعد من النتائج المحتملة . لقد احتضنهم جيد بحماس : كل الناس افراد ، لكن بعضهم أكثر فردية من الآخرين ، وهؤلاء الافراد هم الذين سيفضلهم المجتمع الشيوعي بصفة خاصة .

ومن الحق أن شعار المجتمع السوفييتي يقال انه يدعو الى : « لا أبطال ! » ، ولكن « لا أقبل أبدا ما يفرض علي مما يفصلني عنهم » .

ولكن جيد يفضل أن يعتقد أنه لا بد وأن هناك سوء فهم (٢٣) . (يجب) أن يكون هناك سوء تفاهم ما ! أن الشيوعية (تحتاج) الى تفضيل الفرد الموهوب اذا لم يكن « الوصول الى شجب كل ما نعيش له » (٢٤) . هذه الاحتجاجات ذات أهمية حيوية قصوى : هذا الايمان بالادراك ، تقدم الفرد هو شرط ضروري بالنسبة لتعلق جيد بالشيوعية التي لن تظل حية بعد خسرانها لهذا الشرط . وهو في شغفه لكي يقتنع يتقبل دون نقد خطبة ستالين يوم ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٣١ (حيث يناقش ستالين مسألة

(٢٣) المذكرات ص ١١٠٩ .

(٢٤) المذكرات ص ١١١٦ .

الامتياز في المجتمع الشيوعي (٢٥) وهو يزعم أن هذه الخطبة
ترد على شكوكه بشكل « يدعو الى الاعجاب » (٢٦) . .

وعلى أية حال ان الزعم بان الانسان يتلقى يقينا هو
اعتراف بان الانسان محتاج لاعادة اليقين . ففي غمار فترة
تحالفه مع الشيوعيين تتردد في كل كتاباته نغمة سائدة من
الشك والقلق بل واليأس ، ويظهر هذا بصفة خاصة للقارئ
الذي يستطيع بشكل ما أن يقرأ ما بين السطور .

فبعد أن يندد بمساويء وأشكال جور المجتمع
الرأسمالي - مثلا - يكاد يبدو وكأنه يدافع عن الاقرار
بالرغبة في تحطيم ذلك المجتمع . وجيد لن يستمع الى
الاعتراض القائل بأنه بالرغم من أن المجتمع الرأسمالي قد
يستحق التدمير ، فان طريق الشيوعية قد يفضي الى مجتمع
تكون الرغبة فيه اقل . انه يحتج :

« انني لم أتوصل الى الاقتناع بأن السوفييت (يجب
عليهم وبالضرورة) الوصول الى شجب كل شيء ولهذا فنحن
نعيش » (٢٧) .

هذا النص مقصود به أن يكون تعبيرا عن الثقة : لكنه

(٢٥) البرافدا ، سوز (يوليو) ١٩٣١ .

(٢٦) المذكرات ص ١١٠٩ .

(٢٧) المذكرات ص ١١١٦ (ما بين الاتواس مني أنا - المؤلف) .

وهو على هذا النحو لا يكاد يحمل طابع الاقناع ودعك من التوهج والصفاء . والقلق المتسلل الذي يكشف نفسه هنا وفي نصوص أخرى عديدة يصبح بين الحين والآخر أكثر شدة وكربا .

ولقد أعاره أحد أصدقائه - وهو ببير نافيل - عددا من البيانات التروتسكية ، ولقد اهتز لما قرأه فيها . ومرة أخرى يبدو أن ما ينقصه هو الجدل الشعبي ، فلا شيء يمكن أن يكون أسوأ من انشقاق في صفوف الحزب . كان هذا في عام ١٩٣٢ ولكن في خريف عام ١٩٣٦ - وكان هذا لا يزال قبل رحلته إلى روسيا - امتلا جيد بالشكوك فمحاكمات الخيانة في موسكو التي قرأ عنها أنباء كاملة في « صحيفة موسكو » ملأته بالفزع وبقلق لا يمكن التعبير عنه . ويستطيع الانسان أن يلخص كل هذا الحشد من الاعترافات .

« الاحتفاء بالنظام والرجل لانهما منعا الاشياء التي كانا سيخاطران بحياتهما من أجلها » (٢٨) .

ولو كانت هواجسه أقل دقة فان الهواجس الأخرى أكثر تأثيرا . وحتى يلاحظ مستحسنا الصفة الدينية في الايمان الشيوعي يجد نفسه مرغما على اتخاذ تحفظات معينة فالدين يتضمن كهنوتا ونصوصا مقدسة قد لا يجري تساؤل حول قوتها ولا تتعرض للنقد أي من هذه الامور التي ظلت

(٢٨) المذكرات ص ١٢٥٥ .

طوال حياة جيد تملؤه اشمئزازا واستهجانا . ولا يكفي مجرد الاحتجاج واعلان شك الانسان في وجه كل الكهنوت والمساءلة لا يجب الزوجان منها . ولما كان جيد محصورا بين قرني احراجة فاننا نتبين اكثر حقيقة المسألة بالنسبة له :

« انني افهم من ذلك مدى الاحتياج الى استدعاءسلطة وتجميع حشد من حولها . ولكنني هنا اترك المسألة او على الاقل افعل هذا لو بقيت معهم ، لان قلبي وعقلي هما اللذان نصحاني بذلك ، وليس لانني ارى الاوامر (مكتوبة) . وانني افهم مما تبقى الرغبة لتوحيد الفكر الذي يراود هتلر اليوم وتقليد موسولينى ولكنه الفكر الذي لايمكن الحصول عليه الا عن طريق الارهاب ، وهو ناتج عن ضعف في الذاكرة . ان القيمة الخاصة والفردية تخضع للقيمة الجمعية وبدونها لا تملك اية قيمة » (٢٩) .

ان الامر كما لو كان بطولة « قيمة فردية خاصة » (ضد) « لست اعرف اية قيمة كلية » قائمة في مجرد الخضوع للكهنوت هي التي دفعت جيد الى تعصيد الشيوعية! ولقد تمسك يائسا بمحاولاته ان يرى المجتمع السوفييتي في ذلك الاطار . لقد اخبرنا - لقد اخبرهم (هم) - اية امكانيات عجيبة قائمة امام الكتاب السوفييت في الحاضر والمستقبل . وكم يكون اليقين جميلا ان نرى مزيدا من العلاقات الدالة

(٢٩) المذكرات ص ١١٨٢ .

على أن هذه الامكانيات تتحقق أو سوف تتحقق ! ولقد اتهم المنشورات السوفيتية المعاصرة وكله أمل : ولكن بالرغم من انه قال ان بعضها يدعو الى الاعجاب « (وهو لم يحدد ما هي المنشورات المقصودة) ، اضطر أن يعترف بأنه لم ير حتى الآن عملاً يتجسد فيه « الإنسان الجديد » ، انسان السوفييت « الذي ننتظره » (٣٠) ، وبينما نحن منتظرون يتولانا العجب . فهل من الممكن أن « الإنسان الجديد » انسان المجتمع السوفييتي والادب السوفييتي يمكن أن يبرهن على انه سراب ؟ هل تعاسة ضحايا الرأسمالية الروسية التعاسة هي التي تجعلهم مهمين ؟ هل من الممكن وقد أتاحت لهم الآن فرصة الكلام بالنسبة للفقراء والمسحوقين أن ليس أمامهم ما يقولونه ؟

« وطالما ان النبات لم ينبت بعد فانه لا يمكننا أن نأمل في ان يأتي الازدهار جيداً . وباللاوهام العديدة التي تحيط بكل هذه المسألة ! يالها من مرارة عندما لا نستطيع ان نضع احتقارنا الا على حساب الحشود ! » (٣١) .

هذه الهواجس تحيي من جديد مشكلة اعتقد جيداً على الاقل مؤقتاً - أنه حلها . ان الهدف الاقصى لمساعي جيد منذ البداية حتى النهاية هو تحرير البشرية من القيود

(٣٠) المذكرات ص ٩٤ .

(٣١) المذكرات ص ١٢٣٤ .

المصطنعة وتنمية جميع الثروات الكامنة في الانسانية ، ويمكن التعبير عن هذا بانه محاولة لخلق نمط من البشر اكثر تقدما . لقد ألقى بفمار نفسه مع الشيوعيين لانه توصل الى نتيجة الا وهي : ان ثورة في بناء المجتمع هي شرط مسبق وليس نتيجة لايجاد مثل هذا النمط من البشر . وطالما انه مقتنع بأن الشيوعية تستهدف الفايات التي ظلت دائما اهدافه ، فانه لا توجد تضحية مهما غلت لا يجب بذلها من أجل صالح الشيوعية .

وكما أنه يرى انشغال الشيوعيين بالمشكلات المادية كمرحلة مؤقتة على طريق المسائل الروحية الكبرى ، رأى في حياته انشغالا بالمسائل السياسية والاجتماعية كشيء منفصل عما هو أهم شيء بالنسبة له : فنه .

من الحقائق المذهلة والتي تحتاج الى أن نزنها بعناية في الحقيقة أن جيد - حتى في ذروة حمسه للشيوعية - لم يعتقد اطلاقا - في حالته على الاقل - أن المسألتين يمكن التوفيق بينهما ، فعنده ان الالتفات الى السياسة يعني التخلي عن الادب . وطالما أن ايمانه بالقضية السياسية التي اعتنقها متقد وكامل ، فانه لم يتردد في اتخاذ هذه التضحية:

« ان الفن والادب ليسا الا من نتاج المسائل الاجتماعية، ولا يستطيعان ، اذا ما عرضا انفسهما للخطر ، الا ان يضلا، واني مقتنع بذلك تقريبا . ولهذا السبب تجدني صامتا

منذ ان بدأت هذه الاسئلة تحتل مكانها في مخيلتي « (٣٢) .

وفي عام ١٩٣٦ قام جيد بزيارته الشهيرة للاتحاد السوفييتي . وما رآه كان كافيا لاقتناعه أنه كان يعيش وهما كبيرا من صنعه هو الى حد كبير . وعند عودته كتب « جولة في الاتحاد السوفييتي » وهو كتاب يحدد تحلله من المضاهرة مع الشيوعيين ، وأصبح الكتاب لأكثر من جيل من المتعاطفين الشيوعيين الكتاب الكلاسيكي لزوال الوهم . وعلى أية حال، بدأ الوهم — كما رأينا — يتبدد قبل أن يغادر جيد باريس بفترة طويلة . وما حققته الرحلة الى روسيا هو أساسا تدعيم المخاوف القائمة وتطهير ما كان منذ البداية حتى النهاية سوء فهم مرضيا تطهيرا نهائيا .

ولم يتخل جيد عن أي من مثله الثورية ، غير أنه لم يعد ثانية اطلاقا الى السياسة .

والاهتمامات الاخرى اصبحت ضاغطة ، لقد كان العالم يتحرك حثيثا نحو الحرب . وكان جيد يقترب من نهاية حقبة استمرت ثلاث عشرة سنة ، وكانت هناك بعض الاشياء التي لا تزال تحتاج الى أن تقال .

(٣٢) المذكرات ١١٤٩ .

الفصل التاسع

الكتابات الشخصية

كتب روسو في بداية كتابه « اعترافات » : « انني مقدم على مشروع تصويره لا سابقة له وتنفيذه لن يجد له نظيرا . انني اعتزم أن أري رفاقي من البشر انسانا وسط صدق الطبيعة ، وهذا الانسان سيكون شخصي أنا » (١)

ويستحيل الا نتذكر هذه الكلمات ونحن نتأمل في عدد وطبيعة أشكال الثقة التي كان جيد يمنحها للجمهور طوال حياته ولو حتى من وراء القبر ان جاز لنا مثل هذا القول .

ومن الحق أن احدى كتابات جيد كان المقصود بها في المقام الاكبر أن تكون اعتذارا على غرار جان جاك روسو : وهي الشذرة من سيرته الذاتية بعنوان : « لو لم تمت البذرة » والتي نشرت عام ١٩٢٦ مع كتاب كوريدون . هنا نجد أن وشائج القربى مع روسو كبيرة جدا . ونحن نجد في كلا الكتابين المزاем نفسها عن الاخلاص والانكشافات

(١) المؤلفات الكاملة ، المجلد الاول ص ٥ .

« الفاضحة » نفسها منذ البداية والتي تكاد تعرض كدليل على حسن الطوية . وهناك ايضا التحمس الشديد من جانب المؤلف أن يخل من نفسه على حساب كرامته الشخصية ، ونجد الزهو المتسلل نفسه . . . والمهارة الفنية نفسها .

ان جيد شأنه في هذا شأن روسو يحتج على صراحته :
« ان روايتي ليس لها الحق الا أن تكون صادقة » (٢) .

غير أن الحقيقة لن تكون في اقصاها سوى حقيقة (منتقاة) : ولا يمكن ان تكون على نحو آخر . وان انتقاء المادة لن يكون دائما في صالح المصارحة الممكنة الكاملة .

« انني الفني ذكرياتي ، هذا الجانب الاولي دفعة واحدة ، كل التأملات والاعتبارات حتى اكتسب سمعة (المفكر) . وهي لا تحل محلها ، وهذا هو في رأي داعية الفن » (٣) .

لقد أفضت عبقرية جيد بالنسبة للتناقض الجدلي ، مباشرة الى المسألة الحاسمة : يجب ان ترضي ذكرياته معيارين : يجب أن ترضي مطالب الحقيقة دون اهمال مطالب الفن .

ومن الحق أنه بالرغم من استعداده الظاهري للقيام بتوضيح الفن كما أشرنا ، فإنه بالرغم من التأكيد المكتسج من

(٢) لو لم تمت البذرة ص ٢٤٩

(٣) المذكرات ص ٦١٧ .

أن كل شيء يتراجع أمام مطالب الفن ، نجد جيد أحيانا يستاء من هذه المطالب ويكاد يعتذر عنها . ويحدث أحيانا وهو يتأمل فيما قد كتب أنه تعليق وهو يعتقد أنه في صفحات معينة بأن الأسلوب « يجعلنا نلاحظ كم هو دقيق لكي يكون كاتباً ممتازاً رائعا » (٤) . أنه يصحح وينقح لا لكي يصقل أسلوبه بل لينقيه عندما يبدو له مفرطاً في الوعي ، مفرطاً في العناية ، مفرطاً في الصياغة الأدبية .

وعلى أية حال فإن هذه التحفظات لا تتحدد بالمرّة بوعي جزئي بالحاجة لقص الحقيقة العارية بشكل قصصي واقعي . بل بالعكس ، أن كتب المذكرات التي كتبها جيد تمتلئ بالتصريحات المائلة المطبقة بالمثل على أعماله الروائية . وبسبب الدواعي (الفنية) لا يجب أن يظهر اهتمام المؤلف بالشكل في « لو لم تمت البذرة » :

أن الغريزة التي أفضت بجيد الى أن يطرح — باسم الفن — عباءة « المفكر » فهي غريزة قوية . أن اهتمام المفكر — كمفكر — لا صلة له كثيراً بالحقيقة بقدر ما أن له صلة (باكتشاف) الحقيقة . وحتى حيث ينسب الفنان الى الحقيقة الأهمية نفسها كما يفعل المفكر فإن عنايته (هو) كفنان هي مع (عرض) الحقيقة . لقد سبق لبوالو أن رأى منذ أكثر من قرنين ونصف قرن أن هذه التفرقة تواجهه الفنان

(٤) المذكرات ص ٦٣٢ .

بمازق (٥) ، ولقد طرح جيد هذا المأزق في حدوده هو . ان مشكلة (التعبير) عن الحقيقة - التي هي مشكلة الفنان - هي مشكلة (الاخلاص) ، وعلامات النصوص المتناثرة خلال عمل جيد تبرز الاهمية التي يعزوها جيد لها .

ان مذكراته بصفة خاصة لا يمكن ان تكتب بمعزل عن حالة كتابتها . ومهما يكن ما هو مميز أو جديد في شخصية من الشخصيات لا يمكن ابرازه الا بأسلوب التمايز والجدة المقارنتين . ان الاستسلام للتقليدي والمبتذل الشائع في الكتابة ، هو استسلام للأصالة ، وهذا يقتضي في الكتابة جهدا كبيرا من المهارة حتى يصبح الانسان نفسه . ان نوع الجملة التي نميز بها على التو كاتبا معيناً يجب ان تكون - كما يقول جيد - صلبة للسيطرة « كبنيان أوليس » (٦) .

اذن فان كتاب « لو لم تمت البذرة » هو عمل فني على شكل اعتراف بقدر ما هو اعتراف على شكل عمل فني . والنماذج والنسب في « لو لم تمت البذرة » تمتاز بالوضوح والتوازن مما ليس واضحاً على سطح الحياة ، ولكنه مما قد يكون أقل تضليلاً عن المظاهر المصطنعة التي تبرزها .

وهكذا نجد أن الاختلافات في الاصول الجغرافية لوالديه - فقد انحدرت أسرة والدته من نورماندي وانحدرت أسرة

(٥) فن الشعر .

(٦) مذكرات دون غاريغ ص ٥٧ .

والده من سيفن - تحظى بأهمية ما كان يمكن أن تحظاها في حد ذاتها . وبعد أن يبنى جيد سلسلة ذات تأثير من التناقضات بين الخلفية الفنية النورماندية لأسرة أمه والصرامة الخاصة بسيفين البروتستانتية التي انحدرت منها أسرة والده ، يوحى لنا بأن ذلك الصراع بين هذه التأثيرات المتناقضة هي المصدر الأكبر لعمله كفنان . ولا يهم أن هذه النظرية - بعملية قط بسيطة - يمكن أن ترتد إلى العبث بشكل سريع ، فإن ما يهم هو اقتناع جيد أنه بأية حال في مسأله ، يمكن فحسب للعمل الفني أن يرتفع على القوى المتصارعة داخله إلى مستوى التناقض الجدلي ومن ثم يشكل وحدة . ان حدود الجغرافيا والبيولوجيا التي يجري التعبير فيها عن هذه البصيرة - ربما تحت تأثير « تين » أو لمجرد معارضة « باريس » - هي أكثر من مجرد اقتناع .

ان الاوصاف الطويلة لتبعاته العلمية ، وموضوعات ابحاثه لا يمكن ان تكون أقل عرضية ، ونحن نتذكر أن الذي كتبها هو مؤلف « كوريدون » . وان الوقت الذي خصصه لدراساته للبيانو يصبح مفهوما أكثر عندما نتذكر الاستخدام الذي وضع له حسابا مماثلا في مذكرات اليسا ، أو أنه قد استمر شخصية أحد مدرسيه مباشرة من الحياة ونقلها في صفحات « مزيفو النقود » .

ان انتقاء المادة وتوزيع التأكيد في « لو لم تمت البذرة » أبعد بكثير أن يكونا قد تما بشكل عفوي ، انهما تابعان لخطه

هي شيء أكثر من مجرد مزاج فني . ويعبر جرد جيد لدراساته الادبية عن شيء هو أكثر من ذلك الذي يسرده . وهكذا نجد أن الوصف الذي يتكون لدينا عن دراسته المتحمسة في آن واحد للانجيل والكلاسيات الاغريقية ، انما يمثل شيئاً أكثر من مجرد (القراءة) . ان هذا الوصف هو في الواقع قطعة ممتازة من الدفاع ذات تأثير بالغ لاننا ننسى انها قد كتبت بعد حوالي عشرين عاما من الاحداث موضع النظر على يد انسان لا يقل براءة عن الطفل الموصوف . وجيد وهو يروي هذا الفصل من ماضيه حريص على الا يؤكد فحسب أنه لا يعرض أيا من هذين الحماسين المتناقضين على حساب الآخر : بل ينال (كلاهما) توهجا فريدا لانه يشارك (بكليهما) ايمانويل . وهما يقرآن معا التراجيديات اليونانية وهومر (في ترجمة الكونت دي ليل) انما يعيشان ارتباطا لا يتجاوز توهجا وباطنية بالارتباط الآخر الذي يتقاسمانه في عيد الفصح .

وبينما هو يصف عظمة هذه الرقة والاتحاد العاطفي يبدو الفنان وكأنه يتطلع الى الصيغة السحرية التي ستتجاوز الزمن والتغير لتسترجه الى الوجود :

« ان معبد قلبنا شبيه بالجوامع التي تقبع — من جانب الشرق — متشاببة وغارقة في العطور » (٧) .

(٧) لو لم تبت البكرة ص ٤١٧ — ٤١٨ .

مثل هذا الوصف ليس وصفا ، انه نداء .

ان كتاب « لو لم تمت البذرة » سواء بوعي أو بدون وعي - ويحتمل انه بوعي - هو دعوى للفهم ، دعوى للمشاركة الوجدانية . والوقت أصبح متأخرا الآن لافساد ما تم . والوقت أصبح متأخرا الآن للحصول على أمل بتغير حاسم في طبيعته ، حتى في طريقته في الحياة . ومع هذا يشعر جيد في الساعة الحادية عشرة ، أي قبل فوات الاوان بساعة كاملة ، بأن هذه الاشياء وكل الاشياء انما تشاهد في الضوء والثورة اللازمين ويمكن الا تكون قد ضاعت بعد . ولو كانت الفصاحة تملك أي سلاح لنزع السلاح فمن المؤكد ان القارئ يقترب من الانكشاف الحاسم بشيء من الرغبة في الفهم والتعاطف ، فنجد أن « علي » بوابه الصغير :

« . . . لم ينفد صبره منذ فترة طويلة من القيود المعقدة للعلاقات التي تقيده قيد الحزام ، وقد أخرج من جيبه مديّة ، ثم شطر - بخبطة واحدة - الحيرة التي تنتابه . وقد وقع رداؤه ، وطرح صداره وانتصب عاريا كالرب . وفي لحظة رفع الى السماء ذراعيه المتجمدتين ثم ، ضاحكا ، ترك نفسه فوق ازائي . كان جسده على ما اعتقد متوهجا ولكنه بدا لي عندما لمستّه أنه رطب أشبه بالظل . كم كان الرمل جميلا ! كم كانت روعة الليل ! واية أشعة تلك التي كانت تفر فرحتي ! » (٨)

(٨) لو لم تمت البذرة ص ٥٦١ .

وبالمقارنة تبدو المفامرات بحثا عن « الحالة الطبيعية »
او الارتباط بهذه الحالة الطبيعية على الاقل غير ذات أهمية!
لقد نصحه الدكتور اندريا الذي استشاره بخصوص حالته
ان يمضي الشتاء في « لابريفين » وهي قرية صغيرة في جورا .
وحتى تتم اشغال المنزل فان لديه فتاة سويسرية سميكة
وسوقية يسميها أوجستا ، وهو لا يجعلها فحسب داعرة
بل غير أمينة ايضا ، ذلك انها وهي تطلعه على صورة
لخطيبتها - الذي تحدث عنه دائما - وخزها بشكل ابله
بقلمه في عنقها ومن ثم حدثت الكارثة وهي تنهار بين ذراعيه
وهو متحير بشكل مخيف :

« وبجهد خارق حملتها الى متكا ، ولما كانت تتشبث
بي فقد كنت أضمرها الى صدري وهي بين ساقي المفتوحتين ،
وعندما خارت عزيمتي صرخت فجأة : (انني أسمع اصواتا)
وتظاهرت بالفرع وهربت من بين ذراعيها مثل جوزيف
وجريت لاغسل يدي » (٩) .

بالنسبة لايمانويل التي لم يمنعها توهجها الديني في
محبة الاغريق والاعجاب بهم ، الا يمكن أن تكون قد فهمت
شيئا من الجمال الوثني للحادثة التي وقعت في « ساوس » ؟
من المؤكد ليس هناك أي شيء مشترك بينها وبين شخص
أوجستا المصابة بالهجاس . وفي الحقيقة لا (يرقى) « علي »

(٩) لو لم تمت البلدة ص ٥٧٨ .

أو أوجستا لحبه لابنة عمه . لقد كان هذا حبا روحيا خالصا ،
ثقيا من أية روابط مادية منحطة . وعلى أية حال ، من
الممكن أن يهزه الزواج فيوقظ فيه « الرغبات الطبيعية »
مهما تكن هذه الرغبات ، ولكن سواء كان الامر هكذا أم لم
يكن :

« أعتقد أنني أستطيع أن أعطيها نفسي وقد فعلت ذلك
دون أي تحفظ وبعد فترة من ذلك الحين صرنا خطيبين » (١٠)
ونهاية « لو لم تمت البذرة » هي بداية الدراما الكبرى لوجود
جيد : قصة زواجه . ولكن عندما كتبت عناصر القصة لم
يكن المقصود بها الجمهور . ويتألف كتاب Et lunc Manet
in te من مختارات من « المذكرات » التي احتفظ
بها طوال حياته والتي يرى بعض قراء جيد أعظم صروحه
الهائلة . ولأن « المذكرات » لم تكن هناك نية لنشرها في البداية
على الإطلاق (بالرغم من أن جيد في أخريات حياته تعود أن
ينشر مختارات منها) فإنها ظاهرة مختلفة تماما في نوعها
عن « لو لم تمت البذرة » .

تبدأ الاعترافات التي كتبت على غرار روسو بثقة
المؤلف في صحة رأيه . وهو لن يحكم عليه أو سوف لن
يحكم عليه إلا بقدر ما يساء فهمه أو سوف يساء فهمه .
وهو يعرضه للحقيقة - التي يعرفها يقينا - إنما هو على

(١٠) لو لم تمت البذرة ص ٦١٣ .

ثقة بأنه سوف يبريء نفسه . غير أن نقطة الانطلاق في « المذكرات » عكس الثقة تماما ، ان « مذكرات » جيد هي اسقاط للنفس في فعل اكتشاف ذاتها ، ويمكن التعبير عن قوتها الدامغة سلبيا كشك أو ايجابيا كفضول وحب استطلاع . الشك واضح منذ البداية وهو يؤثر في معظم أساس التجارب .

« لم يكن لدي فيما يتعلق بي الا (الشعر) (وانا اعطي لهذه الكلمة مدلولها الكبير) . واذا بدأت بنفسي فانه يخيل اليّ أحيانا أنني اتخيل أنني اكون . ومن الأشياء التي يصعب عليّ اعتقادها هي واقعي أنا . أنني أهرب دائما ولا أفهم تماما . وعندما انظر لنفسي وانا أنفعل أرى أن الذي ينفعل هو نفسه الذي ينظر والذي يندهش ويشك في أنه يستطيع أن يكون ممثلا ومتأملا في آن واحد » (١١) . هذا النص الخاص مستمد من يوميات ادوارد في « مزيفو النقود » : ولكن ليس هناك شك في أن ادوارد هنا إنما يتكلم باسم جيد . و « المذكرات » مليئة بالتعيينات المماثلة ، والتي يمكن تلخيصها في صيغة واحدة :

« من نفسي الى نفسي ، يالها من مسافة ! » (١٢) ان « المذكرات » ضمن أشياء أخرى هي محاولة لاقامة معبر

(١١) مزيفو النقود ص ١١٠ .

(١٢) المذكرات ص ٣٦٥ .

على هذه الهوة ، انها المرآة التي سوف يبحث جيد فيها عن حقيقته . وفي الحقيقة لا يمكن الفرار منها لانها الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن تواجهه الحقيقة الموثوق بها . والى ان يراها منعكسة في يومياته ، فلا شيء يبدو حقيقيا بما فيه الكفاية بالنسبة له لتناوله بجدية .

غير أن المرآة تقوم بشيء أكثر من مجرد نقل الوجود ، انها تشبع الفضول ، وهو فضول يتخذ طابعا خاصا من ظرف انه موجه الى نفس الانسان : والنفس (الباطنية) هي موضوع الفضول :

« انه يريد أن يعلن ... ما هو شكل روحه ... آه !
الا يمكن أن يعرف الانسان نفسه ... الا يعرف جماله !
... في مرآة ! مرآة ! مرآة ! » (١٣)

ومن الحق أن علاقة الصورة التي تعرضها المرآة بأية حقيقة مطلقة هي علاقة غير يقينية الى حد ما ، فالمظاهر خداعة ، فهي قد تكون متناقضة وهي في غالب الاحيان متناقضة حقا (١٤) : ولكن كيف يتأتى لنا أن نتصل بالحقيقة الا عن طريق ما نظهر به وما ندركه ؟ وهذا يطرح المشكلة الهامة ، مشكلة الاولية . هل يجب أن يكون الانسان أولا لكي يبدو أو على الانسان أن يبدو أولا ثم يكون ما يبدو عليه؟

(١٣) نرجس ص ٢٠٨ .

(١٤) لو لم تمت البلدة ص ٤٣٢ ، ٣٨٦ ، ٣٦٢ .

ومجرد طرح المسألة بهذه الطريقة انما يوحي بميل الى القضية الثانية ، وهذا الميل هو ميل قوي في الحقيقة لدى جيد .

عندما يكتب كتابا لا يحاول أن ينقل الى صفحات مزاجا داخليا ماثلا من قبل ومكتملا داخله . ان الكتاب هو بالاحرى علة ذلك المزاج بمعنى انه يعطي ما هو واقعة واحدة من وقائع عديدة ، فيعطي « عادة محلية واسما » . الواقعة (منتقاة) بارادة وبشكل مؤقت (الوقائع الاخرى تكتب بشكل مؤقت) لتحقيق أهداف الكتاب ، وطبيعة الكتاب تحدد الشخصية ولا تحدد الشخصية طبيعة الكتاب : « الموضوعي ؟ الموضوعي ؟ هذه الكلمات تفقد هنا معناها » لانني لو استطعت أن أرسم ما يدور في مخيلتي (واحيانا يبدو لي أنه لا يوجد رسم حقيقي لهذا) فاني أولا اكون قد صرت ذلك الذي أردت أن أرسمه « (١٥) » .

لقد أصبح الآن دور « المذكرات » أكثر اتضاحا ونحن نفهم على نحو أفضل السحر الذي مارسته المذكرات على جيد ، فكل تفصيلا تضيفها الى صورة جيد التي ترسمها ستلعب - في الواقع - دورا مثيرا ملهما بل حتى خلاقا . تلك الصورة سوف تكون عملا فنيا بالمعنى الحرفي . ان الاغراءات عظيمة للغاية وكذلك المسؤوليات .

(١٥) المذكرات ص ٧٣٧ .

واذا كان هناك شكل محدد للطرح يتعارض بالفعل مع
الاخلاص فان الاشكال الاخرى للطرح لها دور ايجابي قيم
للعب وتستحق التشجيع عن غيرها . فاذا آمن المرء بانه
فاضل وشجاع - مثلا - فان الانسان يجد نفسه بشكل نادر
نتيجة ذلك الاقتناع وهو يتصرف على نحو فاضل او شجاع .
واذا كان هذا مرغوبا فيه احيانا بهذه الطريقة لاعطاء النفس
الثقة بفضائل معينة فان المرغوب فيه اكثر مد هذه الثقة
الى فضائل اخرى :

« نظرا لان الثقة التي تمنحها لهذه الفضيلة تدفعهم
وتشجعهم للحصول على الشيء الذي لم يحصل عليه من
تلقاء نفسه والذي اوصله الى قوته الخاصة . ان بعض
الناس يتمسكون بفضيلتهم لكي يتشبثوا برايتهم الذي يعرفونه
او يأملون في اكثر من رأي ، انني سوف اصبح ما كنت
اعتقده » . (١٦)

لقد كان جيد يقترب من الستين من عمره عندما كتب
هذه الكلمات وهو لم يكتبها عفوا . انها كاشفة في الحقيقة
بشكل غريب . انها تعرض وتشرح (من وجهة نظر جيد)
الدراما المحورية لحياته خيرا من اي نص آخر .

ولقد رأينا ان عرض النفس هذا هو في الواقع (مشروع)
ونحن باستقاط صورتنا عن انفسنا كمشروع نحب ان نكون

(١٦) المذكرات ص ٨٥١ - ٨٥٢ .

على غرارہ نمکن انفسنا - في ظروف معينة - من التطابق في الواقع مع تلك الصورة . المطلوب هو الايمان : يجب أن يكون لدي ايمان بنفسى والشخص الذي اعرض له الصورة يجب بالمثل أن تكون لديه ثقة بي . ولكن كل شيء ، يجب أن يكون لدي معيار أو سس بمقتضاه صورة نفسى التي اسقطها كمشروع . وجيد لا يتركنا أبدا حيارى معظم حياته حيث بحث عن ذلك المعيار :

« ... اننى لم اكتب سطورا الا اذا كان موحى به الى مباشرة .. » (١٧) . « ان كل اعمالى موجهة اليها ... وكل هذا ليس الا دفاعا طويلا » (١٨) .

وبالرغم من كتاب شلومبرجر الجميل يجب انصاف قصة مادلين واندريه جيد . فلو كان جيد - حسب مزاعم شلومبرجر - اقل عدالة لمادلين في كتاباته فان اعتذار شلومبرجر - الكريم والراسخ لمادلين ربما لا يكون عادلا بالمرّة لجيد . لكن شلومبرجر أكد بحق الحب العظيم (والثابت) الذي يوحد بينهما حتى في لحظات أعظم تعاستهما .

والتعاسة التي سببتها جنسية جيد المثلية لزوجته نادرا ما تقدر حق قدرها ، لكنها ليست اكبر من حبها واعجابها بزوجها . والاحباط الذي شعر به جيد في وجه تنديد مادلين

(١٧) مزيفو النقود ص ١٠٨ .

(١٨) المذكرات ، الجزء الثانى ص ١١٥٧

الثابت بكل شيء فيه يبدو لها فاضحا كاد يقوده الى شفا
اليأس : لكن حكمها عليه هو الذي يهيمه أكثر دائما .

لم يكن استحسان امانويل وحده هو هدف كل مشروع
لجيد ، فموافقتها على صورته هي - للأسباب التي نحن
نطرحها - شيء لا بد منه بالمعنى الحرفي :

« كان يبدو لي انني عن طريقها انني احيا وانني اشعر
بأنني تابع لها » . (١٩)

« انني لا أستطيع أن أتصور نفسي بدونها فانه يبدو
لي انه بدونها ليس هناك شيء » (٢٠)

« انني اعتقد انني لا أعيش بدونها » (٢١) « كانت
لي بمثابة الحقيقة » (٢٢) .

ونحن الآن في وضع يمكننا من فهم شيء من المسائل
الواردة في اهتمام واقع هو ان جيد ظل هدفا لكثير من
النقد المعادي .

في عام ١٩١٨ قام جيد برحلة الى انجلترا مع مارك
اليجرية الذي كان على علاقة حب به شديدة . وبعد

(١٩) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

(٢٠) المرجع السابق ص ١١٥٤ .

(٢١) المرجع السابق ص ١١٥٥ .

(٢٢) المرجع السابق ص ١١٦٤ .

رحيله مباشرة احرقت مادلين كل رسائله . ولقد سجل
جيد الحادثة في « مذكراته » على النحو التالي :

« لقد بددت مادلين كل رسائلني . آه ! انني اعلم جيدا
كم عانت على اثر رحيلي مع مارك ولكن هل من حقها الانتقام
من الماضي ؟ . . . (ان الشيء الافضل في نفسي هو الذي يرتحل)
ولا يعاد له الا الشيء الاسوأ . انني اشعر بانهياري دفعة
واحدة » (٢٣) .

هذه الصيحة المخيفة ، صيحة الشجن والالم والنقمة
فيها شيء أكثر من مجرد التعبير عن الكرامة المجروحة ، فهي
مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاطروحات التي نحن نناقشها :

« هل تفهم انها بذلك تذييل المنحني الوحيد القائم في
ذاكرتي ؟ وهل في المستقبل سوف أجد ملاذا ؟ ان كل ما في
داخلي من حسن قد منحته لهذه الرسائل » (٢٤) . « انها
لم تكن - بصريح العبارة - رسائل حب ، ولكن حياتي كانت
ترسم امامها أولا بأول ويوما بيوم » (٢٥) .

ان حقيقة شخصية جيد - كما رأينا - هي بالنسبة
له نسبة ، وفي المقام الاخير ما من تجل من تجلياتها يحيط

(٢٣) المرجع السابق ١١٤٥ (ما بين القوسين مني أنا) (المؤلف) .

(٢٤) المرجع السابق .

(٢٥) المرجع السابق ص ١١٤٧ .

بها أو يحددها ، حتى أنه عندما تبدو الصور المختلفة للنفس يناقض بعضها بعضا لا يمكن أن يقال عن أحداها انها الصورة الحققة وتعد الصور الاخرى بالمقارنة معها زائفة . مثل هذا المعيار لا يمكن أن يطبق الا لو كان المظهر مقاربا للواقع . والآن ، اذا كانت الحركة (من) الواقع (نحو) المظهر مما ينكره جيد ، فائنا نرى العملية العسكرية هي الحاسمة . وبدلا من أن تبتعث الحقيقة المظهر ، نجد المظهر يبتعث الحقيقة : انني اميل الى أن أصبح ما أقول أنا . ان ما يكون عليه مظهري (وما سوف يكون لهذا « في الواقع » حقيقتي) يتوقف على الصورة التي اتبعها . وموضوع السيرة الذاتية (أو المذكرات) يجري (ابداعه) بالطريقة نفسها التي تبدع بها الشخصية في الرواية . وهو نادرا ما يتجسد في أية حقيقة خارج الكلمة المكتوبة .

« انني آخذ في الاعتبار ، كما أتوقع أحيانا انني سأشارك في ذلك الذي (سوف يحدث) ولكن اذا جاز القول يجب علي أن أقر أنني لم أتوصل حقيقة الى تصديق ذلك ، ولو تكلمنا صراحة ، فان ازدواج الشخصية يجعل من نفسي شخصا يبتغي أن ينظر للشخص الذي يتفاعل وليس على أنه هو الشخص الذي يتفاعل أو الذي يتألم » (٢٦) .

ومن السهل أن نفهم في ضوء هذا النص البارز أنه

(٢٦) المرجع السابق ص ١٢٢٦ - ١٢٢٧ .

حتى (منهج) كاتب الرواية سيستسلم لكاتب اليوميات أو المذكرات أو الاعترافات . وفي الحقيقة لامية للاخلاقى .
والى المدى الذى يجد نفسه فيه قانعا بحقيقة مفرطة فى التبسيط ومضللة ، فانه يضطرب فى بحثه عن الحقيقة . انه مواجه بالمشكلة نفسها التى يواجهها الروائى الذى يبحث باخلاص عن تصوير شخص حقيقى (٢٧) . واذا ادرج الحقائق او الوقائع على أساس انها حقيقية فحسب وليس على أساس انها كاشفة لاغراضه فانه يهدم الانموذج الذى يحاول أن يخلقه . وهذا يزيف بالضرورة صورته ، فالحقيقة كامنة فى الانموذج وليس فى الوقائع .

لهذا فان التفرقة بين الكتابة القائمة على السيرة الذاتية والروائية تفرقة تعسفية فى الممارسة ، فكلاهما يعتمدان على خلق شخصية معبرة محملة برسالة . وهذه الحيلة محورية فى فن جيد حتى انه عندما يبدو أن الآخرين ينكرونها عليه يجد صعوبة فى الكتابة أصلا .

وقرب خاتمة رسالته يجد نفسه يتساءل ما اذا كانت الصعوبة التى يعانها فى الكتابة بابداع لا يفسرها انه لم يعد يغذى داخله شخصا وهما يستطيع ان يقدمه فى اطار الرواية ، ومن ثم يجد نفسه يقتصر على التحدث باسمه . وهذه المسألة لافتة للنظر ، وهذا يحول بينه وبين

(٢٧) المرجع السابق ص ٥٤٧ .

الكتابة ، ولكن ليس هناك شك بأن الامر على هذا النحو ماثل في ذهن جيد على الاقل . وهو لا يستطيع ان يفكر في وسيلة افضل - ولا أية وسيلة أخرى - للتغلب على هذه الصعوبة سوى أن يخترع من جديد « بطلا مطلق الصلاحية » يستطيع أن يزوده بالفصاحة التي يبدو أنها تنقص خالق هذا البطل ! (٢٨) وحتى رسائله الى مادلين هي عمل فني وسبب يأس جيد عندما أعدمت هذه الرسائل واضح الآن . ان مؤلف هذه الرسائل هو نسخة من نفسه يستطيع ايمانه وثقة مادلين أن تبثا فيها الواقع (٢٩) بقدر ما تستطيع أن تستمتع به نسخة أخرى من نفسه . وهي (افضل) النسخ .

وسحب تأييد مادلين لهذه النفس الخاصة هو ضربة مميتة لهذه النفس ، وطالما أن جيد يستمر في التوحيد بين نفسه وبين هذه النفس لا يكون لديه أي شعور طيب بالوجود ، يكون لديه شعور ميت بها . ومنذ وفاتها وهو يتظاهر بأنه حي ويشك بين الحين والحين ما اذا كان حيا حقا (٣٠) ، واذا كان موجودا اذن فان الحياة « على السطح » (٣١) :

(٢٨) المرجع السابق ص ١٠٤٣ .

(٢٩) انظر الفصل الرابع .

(٣٠) المذكرات ص ٨٨٢ .

(٣١) المذكرات ص ١٠٤٤ .

« أجل ، انه كذلك . انني ميت بالفعل ، والذي اعيشه الآن هو نوع من العيش التكميلي لا أهمية له وهو لا يشجع على شيء » (٣٢) .

ولكن ليس هناك سبب يجعل هذا الكائن غير المترم يواصل توحيد نفسه مع النفس التي ماتت مع مادلين . وهناك سبب كاف يجعله لا يفعل .

وسلوك مادلين هو - في المقام الاخير - نقد ضمنى . وهذا الحكم العكسي الخاص عن نفسه يرجع دون شك الى فشل الفهم والتعاطف من جانبها : ولكن الاحكام العكسية الاخرى ضده سائدة ولها تفسيرات اكثر ازعاجا . انه (يساء تقديمه) فلقد ألف اعداؤه وحشا اطلقوا عليه اسمه لكنه عاجز عن أن يجد في نفسه أي اثر من نفس يستطيع أن يرضى باعتناقها . ان جيد - لهذا - وهو يرفض أن يتبين نفسه في النسخ المختلفة لنفسه التي اقترحها النقاد ، يكرس نفسه لمهمته الاخيرة - وهو اهم مشروع لجيد - الا وهو أن يحتفظ بنفسه حيا . ولكي يتمكن من أن يفعل هذا يجب ان يرد النفس الى الحياة والثقة او يجب ان يرد الحياة والثقة الى النفس التي يعتبرها انعكاسه الحقيقي . النفس التي يريد أن يكون عليها .

« اضطرت ان أعيد تلقين نفسي الانانية ، واقتنعت بأن

بدون أنانية لن اتوصل الى نجحي « (٣٣) . وهذا ليس مستحيلا ، وكان عليه أن يبحث عن مرآة أخرى غير عيني ايمانويل . وكانت هناك حاجة الى وضع جديد ، ولكن حياته كلها قد اعتادت أن يضع نفسه في أوضاع ، فقد اعتاد وهو شاب أن يجلس ويكتب أمام مرآة (٣٤) وعندما أصبح مسنا لم يعد نادما .

ليس هناك شك في عودته الى نرجسية شبابه ، لكن كل فصل له سحره ، وهناك جماليات للسن المتقدم أكثر من جماليات لسن الشباب . ليست المسألة مسألة زهو جسماني ، انها مسألة عرض النفس - بكل احتراماتها - في ضوء جميل قدر بالامكان .

وان اهتمامه بالاناقة - لا أناقة الشخص بقدر ما هي أناقة تقديم نفسه للآخرين - ينم عن شعور واضح بما يدين به نفسه . ففي الصفحات الاخيرة التي كتبها وجد وقتا للتعليق على الغندرة التي يتهم بها أحيانا .

ولكن هناك سبب عميق آخر يجعل صورة نفسه التي تركها للأجيال لا يجب أن تكون « منفرة للغاية » (٣٥) السبب أنه يريد أن يجعل هذه مثالية :

(٣٣) المذكرات ص ١٢٣ .

(٣٤) المذكرات ص ٢٥٢ .

(٣٥) المذكرات ص ٢١٨ - ٢١٩ .

« ليس بأعماله يستطيع أي إنسان محب للبشرية أن يكون صالحا ولا بضربه المثل ، أنني أريد أن أقول بنظرته نفسها ، بالصورة التي يقترحها التي يتركها وبالشئ الذي يسمح له أن يستنشق السعادة والصفاء » (٣٦) .

ان مدى نجاح جيد في أن يخلف وراءه الصورة التي يريد أن يتركها للأجيال ، مسألة ستظل دائما موضع خلاف . لكن ربما كان أهم صفاتها جملة يمكن وصفها بين قوسين وهي كلمات قليلة يطبقها جيد على نفسه دون شك بشكل مطلق وحق : « إنسان محب للإنسانية » .

الفصل العاشر

تعليق ونقد

انه فكر رائع بالنسبة لرجل مات عام ١٩٥١ حتى انه لو لم يظل حيا بعد نشوب الحرب العالمية الاولى لظل كاتباً كبيراً حتى الآن . ونحن نجد كتبه « مذكرات أندريه والتر » و « بحث عن نرجس » ، « اشعار أندريه والتر » ، « رحلة الى أوربا » ، « مستنقعات » ، « محاولة حب » ، « المباهج الدنيوية » ، « فيلو كتيب » ، « بروميثوس مقيدا » ، « الحاج » ، « رسائل الى انجيل » ، « الملك كندول » ، « اللا اخلاقي » ، « ادعاءات » ، ادعاءات جديدة » ، « سول » ، « أقيتاس » ، « عودة الابن الضال » ، « الباب الضيق » ، « ايزابيل » - كلها نشرت حتى عام ١٩١١ و « كوريدون » و « كهوف الفاتيكان » اللذان كتب جزء منهما قبل عام ١٩١٤ - هذا اذا اغضينا الطرف عن « المذكرات » والمراسلات - اذا أضيفا الى القائمة السابقة تشكل حصيلة كبيرة .

وعلى أية حال فإن ما يظل أكثر غرابة هو التفكير في أن

جيد لو كان قد مات في سن الخمسين لكسنت شهرته قد ولدت بعد وفاته . فخارج دائرة أدبية صغيرة نسبيا ظل جيد حتى العقد الثاني من القرن العشرين (الذي وصل فيه الى عيد ميلاده الخمسين) مجهولا . ولقد نشرت كتبه على حسابه في طبعات صغيرة لم تلق نجاحا تجاريا .

ولقد كانت مبيعات « مذكرات أندريه والتر » بسيطة حتى أنه قد طبعها على ورق خشن فيما عدا سبعين نسخة اضافية . ولقد نشرت « اللا أخلاقي » في طبعة عددها ثلاثمائة نسخة ، ولم تبع « المباهج الدنيوية » الا خمسمائة نسخة في أحد عشر عاما وهو مثال صارخ .

هذه الحقائق هبطت شهرة جيد بتشويش المدى الذي نجح به ليكون البشير الذي أراد دائما ان يكونه . وعندما تمكن ارتباط الظروف وجمهور واسع بعد الحرب العالمية الاولى من خلق جمهور اعرض لمؤلفات جيد ، أصبحت كتبه - كما يقول جستين أوبريان - « أشبه بقنبلة تأخر تفجيرها » (١) . واذا كانت رواية « المباهج الدنيوية » لم تقرأ طوال العشرين سنة الاولى من وجودها فقد اتهمها أول جيل بعد الحرب من القراء ونحن نجد كثيرا من الشباب الذين « اكتشفوا » جيد حينذاك يندهشون وهم يعلمون ان « المباهج الدنيوية » قد كتبت قبل ان يولدوا على حد

(١) كتاب « صورة أندريه جيد » ص ٢٠٠ .

قول هنري ماسيس (٢) .

ومع هذا لو كان جيد قد انتظر الشهرة العريضة الى أن يصل الى الخمسين لكان قد أعلن به منذ بداية عمله الابداعي استاذا في فنه من قبل زملائه من الكتاب . وفي أوائل ١٨٩٠ أكد بيير لويس لجان نافيل أن جيد « أمامه أعظم مستقبل » من كل معارفه من الادباء العديدين (٣) . ولقد اجتذب نشر « مذكرات أندريه والتر » رسائل اعجاب من مالارميه ومارسيل شوب ، ج - ك . هوسمانز ، بول بورجيه وبول فاليري الذي لم يكن معروفا بعد وجذب انتباه شارل مورا وهنري دي رينيه وموريس باريس وموريس ميترلينك وكاميل موكلير وآخرين . قد يكون المعجبون بجيد في بداية حياته قليلين ؛ لكنهم ليسوا نكرات . وسرعان ما انضافت اصوات كلوديل وفرنسيس جيمز الى جوقه المعجبين . واضاف رجال اصفر سنا مثل هنري جيون وادموند جالو وجاك كوبو وجاك بريفيير جيلا ادبيا ثالثا للجيل الاقدم من المعجبين .

ودون استثناء كبير تمتع جيد في غيبة الجمهور العريض بالمصادقة الحماسية لخير ما في عالم الادب الفرنسي لعقدين من السنين : ١٨٩٠ - ١٩١٠ .

(٢) « من أندريه جيد الى مارسيل بروست » ص ٢٨ .

(٣) انظر كتاب بول ايسلر عام ١٩٣٧ .

وفي الحقيقة - وهذه مساهمة مذهلة - لم تتعرض
روعة جيد إطلاقا لتحذ خطر ، تحذ من جانب ناقد ذي
تأثير ليجعل الاتهام أقل سخرية .

ولقد انضم لكوبو وبريفير جيل مالرو الذي تبعه بدوره
جيل سارتر وكامو ، وكان (صفوة) كل جيل يقدم لجيد
معجبين جددا . وحتى أن أعداءه من بول كلودل الى هنري
ماسيس اثنوا على استاذية جيد الفنية واعتبروه « المعاصر
البارز (على الاطلاق) » (٤) .

وفي الحقيقة لم يكن فرنسيس جيمز قد ارتد بعد الى
الكاثوليكية عندما أكد لجيد عام ١٨٩٤ : « انني أعجب بك
من كل قلبي . . . ولديك ما تقدمه أكثر من مجرد المواهب
العظيمة . . . »

ولكن قناعات كلوديل قد تبدلت وأصبحت معارضة
لجيد عندما كتب له عام ١٩٠٦ :

« اي كاتب ممتع أنت ! »

وفي عام ١٩٢١ أكد شارل دي بوس لقرائه أنه :

« اذا نظرنا الى جيد بكل بساطة ككاتب وكأستاذ
وحامي للغة ، فان مكانته اليوم مكانة فريدة » (٥) .

(٤) « أندريه جيد » لبير - كنت ص ٣٧٨ وما بعدها .

(٥) حوار مع أندريه جيد ص ٣ .

وفرنسوا موريالك الذي جاءت مرارة تعليقاته على جيد حادة ، بتذكر الفهم والرقّة اللذين كانا يميزان علاقته بانسان كان يعي انه يدين له بالكثير (٦) - ان فرنسوا موريالك يستطيع ان يتحدث بحكمة عن « الضوء النقي » في كتابة جيد (٧) . وحتى هنري ماسيس الذي خصص اكبر جانب من حياته للتنديد بجيد وكل أعماله يعترف اكثر من مرة بكمال فنه . فالفاسق الشيطاني في الدين والاخلاقيات هو في الوقت نفسه « الفنان ، الكاتب دون منازع » (٨) .

غير ان الكلمة الاخيرة بالنسبة لهذا الموضوع ترجع الى « لاوبزرفاتوري رومانو » الصحيفة الرسمية للفاتيكان حيث وجد كاتب بارز مناسبة للحديث عن « ذلك الصوت القوي الرقيق الذي يذكر بين الحين والحين بالطف صوت لكل ما هو عظيم في فرنسا . . . » وكانت المناسبة وضع فهرس للكتب الممنوعة التي تشكل كل أعمال جيد . (٩)

فاذا كانت عظمة جيد ككاتب معترفا بها بشكل مطلق ، فان أعماله وحياته لم تخل من التعرض لامر الهجمات وهي هجمات تتعلق بأخلاقياته الخاصة وأعماله العامة وتأثيره

(٦) حوار مع أندريه جيد لكلودموريالك .

(٧) أندريه جيد لجيرارد ص ٢٣١ .

(٨) المرجع السابق ص ٦١ .

(٩) يوم ٢٤ ايار (مايو) ١٩٥٢ .

فوق كل شيء . ومما له دلالة ان هذه الهجمات تحدث اساسا من اتجاهات متعارضة وفي كل حالة من جانب نقاد تمتع في وقت ما بعلاقات صداقة معهم .

ومن أهم النقاد العديدين والملحين لجيد نجد الكاثوليك الرومان بطبيعة الحال، ولم تنجح احتجاجات كلودل وماريتان وغيرهم الخاصة في الحصول على حجب « كوريدون » و « لو لم تمت البذرة » وكانت هذه هي الموجة الكبرى الاولى للتنديد التي تنشب بمناسبة نشر هذين العاملين . ولقد اُضاف نقاد من امثال ايوجين مونتفور وهنري بيرو اصواتهم الى صوت هنري ماسيس لينضم اليهم الاب فيكتور بوسيل ورينيه شوب وعدد آخر من النقاد .

ويختلف عمل هؤلاء النقاد اختلافا كبيرا في كيفه من التنديد الارعن الاهوج الى المحاولة الجادة لطرح قضيته، لكنهم جميعا بالمثل وعلى نحو مباشر أعداء له .

وهؤلاء الكاثوليك الذين يقدرون قيمته وليس مجرد براعته كفنان ، مجموعة مهمة كبيرة . وكلوديل الذي يعد أعظمهم ، مخيب للامل في هذا المضمار . وفي أواخر ١٩٢٦ بالرغم من التعصب الاعمى الذي أخضع جيد له سرا كان لا يزال قادرا على أن يكتب : « ان مجراك لم يسر بعد ... انك واحد منذ اولئك الذين يكملون منحني كاملا في حين ان الآخرين لا يكادون يضعون الخطوط العريضة لبدايته - وهذا في الواقع هو احد الاسباب التي تدفعني الى ان أهتم بك -

وهو اهتمام يلعب فيه القلق دورا كبيرا بقدر ما يلعبه
الامل « (١٠).

وعندما أحبط رفض جيد السماح لكلوديل ان يمي
على ضميره هذا الامل ، لم يملك كلوديل ألا ان يفرق في غضب
أعمى أخرق :

« لن أعترف بأن لديه أية المعية . . . لقد قدم مثالا
مفزعا للجبن والضعف . . . انه مسمم . . . » (١١) .

والنقاد الكاثوليك الآخرون مثل جيمز ، جيون ودي
بوس يسلكون على نحو أقل بساطة . لقد اظهر لهم جيد
كثيرا من الرقة (كما فعل لكلوديل) ولقد أعجبوا به كثيرا
وطويلا مع احتفاظهم بالتزام الشعور بالتنديد به . ففرنسيس
جيمز على سبيل المثال (الذي دفع جيد من جيبه حتى ينشر
له أعماله الاولى) يكتب الى جيد يطلب منه ان يجد له ناشرا
لنشر عمله الادبي التافه .

وعلى أية حال ، ربما كان اهم نقاد جيد من الكاثوليك
الرومان شارل دي بوس الذي له ضعفه ، ونحن نجد جيد
بلمسة بارعة الخفة يذكرنا بهذا الضعف (١٣) : لكنه واحد

(١٠) مراسلات مع كلودل ص ٢٤٥ .

(١١) المرجع السابق ص ١٠٩٨ - ١٠٩٩ .

(١٢) المذكرات ص ١٠٩٨ - ١٠٩٩ .

(١٣) المذكرات ص ٩٦٤٦ ، ١٠٤٨ ، ١١٧٤ - ١١٧٥ ، ١١٩١ - ١١٩٢ .

من أهم النقاد الفرنسيين المحدثين وجاء إعجابه بعمل جيد كبيراً حتى أنه طرح جيد كمشكلة روحية .

إن تنديدات ماسيس العنيفة وغضب كلودل الشديد ليست من شيم دي لوس . أنه لا يستطيع أن يوفق بين الاتهام بالشر الخبيث الذي يسم به ماسيس جيد وبين الرجل أو العمل الذي يعرفه تماماً . وهو بطبيعة الحال لا يستطيع مثل كلوديل أن ينكر أن جيد ليست له أية ألمعية . وفي الوقت نفسه كان يأخذ على جيد ما يمكن أن يسمى الشحن . لقد سمع جيد ذات مرة بل شجع أصدقاءه الكاثوليك الرومان (١٤) على أن يعتقدوا أنه كان على وشك التصالح مع الإيمان المسيحي إن لم يردد في الحقيقة إلى الكاثوليكية الرومانية . مثل هذا الارتداد — في نظر دي بوس — كان انتصاراً كبيراً كان دي بوسي سعيداً به للغاية . لكن جيد لم يردد وكان على دي بوسي أن يعد عليه هذا الفشل .

ولقد قام بهذا ببراءة . إن دي بوس قد استغل فشل جيد لإنتاج الرواية التي تصور حياة المتشردين على طريقة ديفو أو فيلدغ والتي قصد جيداً أن يكتبها بعد « الباب الضيق » وحيث تعد روايتنا « كهوف الفاتيكان » و « مزيفو النقود » غير كافيتين كبديل ، وذهب دي بوس إلى أن جيد قد فشل كروائي لأنه تنقصه الإنسانية حقاً . قد تكون طبيعة

(١٤) أهدى جيد كتاب « نمكدوانت ! » لـ دي بوس .

جيد معقدة ، لكنها ليست ثرة (١٥) . انه ينقصه أريحية روائيين من أمثال تولستوي أو ديكنز الذين أعادوا تقديم الحياة في تنوعها وامتلائها .

أن استسلام الانسان للحياة هو دائما بالنسبة للروائي العظيم شرط خلاصه ، وأنا مقتنع من جانبي أنه نحو هذا الاستسلام قد انجذب مؤلف « مزيفو النقود » حتى أن هذه الحالة هي الحالة التي أراد أن يحققها . لكن تراجيديا جيد الخاصة تكمن من أنه مهما تكن رغبته وحتى ارادته في الاستسلام رغبة مخلصة ، فانه لا يوجد شيء ليس قادرا عليه ، وأن محاولاته نحو تحقيق هذه الغاية لا تنجح الا في اضاءة وتضمين تلك الاستحالة . . . وهو في الرواية يعطينا حياته (هو) بالمعنى الحرفي والمثير في المصطلح ، لكن هذا هو كل ما يقدر عليه : انه لا يستطيع أن يمنح (الحياة) (١٦) .

هذا العجز المزعوم بالنسبة لجيد للهرب من الذاتية المحض وتحقيق حتى شكل التجاوز الذي يتعلق به للغاية، هو في نظر دي بوس نمط وأنموذج فشل جيد بصفة عامة . يقول دي بوس ان جيد يتطلب (موضوعا) خارج نفسه ينزع نحوه : لكن ما من شيء فيه يبدو قادرا على تزويده بموضوع . ونحن نجد غابرييل مارسيل (١٧) وماسيس

(١٥) حوار مع أندريه جيد ص ١٤٥ .

(١٦) المرجع السابق ص ١٧٢ .

(١٧) عرض جديد للشباب ١٥ تموز (يوليو) ١٩٢٩ .

— الذي غير بالفعل أحد مقالاته بناء على طلب دي بوس الى « فشل أندريه جيد » (١٨) ، وحتى آرشابول (١٩) المتعاطف ، يتمسكون بنتائج دي بوس ويرفعانها علما .

ويسير معظم النقاد الكاثوليك الرومانيين على الدرب نفسه . . وهم يذهبون الى أن جيد موهوب دون شك كفتان لكنه كإنسان منحط جسمانيا ونفسيا وخلقيا . وتأثيره ضار تماما لا لان مقاصده دائما شريرة كلها (وحتى ماسيس تخلى عن هذا) بل لان اصراره على رؤية ضعفه وفساده كقوة وفضيلة قد أفضى الى ما أسماه دي بوس « انقلاب معمم » للقيم (٢٠) ، يستطيع فنه أن يجعلها مقبولة .

ويحاول فرنسوا موريك في مقال يلخص موقف الكاثوليك الرومان المعاصرين تجاه جيد (٢١) ، ان يقدر السحر الذي مارسه جيد على كثير من الكاثوليك بما في ذلك نفسه . ولقد رأى المسألة في ضوء أن تاريخ جيد هو مخاطرة مسيحية ، تراجيديا مسيحية . ليس جيد في انظارهم ملحدا تماما ، انه مسيحي دمر نفسه خلال صراع طويل ومزير مع الايمان بينما هم يسعون شغوفين — ولكن

(١٨) احكام ماسيس ص ٢٧٥ .

(١٩) انسانية أندريه جيد .

(٢٠) حوار مع أندريه جيد ص ٢١٧ .

(٢١) مجلة نوفيل ريفيو فرانسيس . تشرين ثان (نوفمبر) ١٩٥١ .

هاجرين - أن يخلصوه .

ولا شك أن اعتناق جيد لقضية الشيوعية قد ختم على هذا المعتقد ودعمه : لكن هذا لم يتسبب في أن يصبح له أصدقاء جدد . ان طبيعة عمل جيد قبل « انقلابه » - باستثناء عمله البارز « رحلة الى الكونغو » - كانت حجرة عثرة في طريق المعجبين الجدد به . وهنا أيضا نجد أن فشله في انتاج رواية واقعية هو مصدر حيرة لأولئك الذين يشعرون بأنهم مدعوون الآن للتشكك في عبقريته .

فمثلا ، لم يتمالك ايليا اهرنبورغ الا ان يقول ان جيد لم ينجح في انتاج مثل هذه الرواية : لكن - كما يقول عند هذه الرحلة - ليس الخطأ خطأ جيد . يقول اهرنبورغ ان جيد ولد ليكون الروائي الكبير للمجتمع ، لكن المجتمع الذي يعيش فيه مخل للدرجة لا تمكنه من أن يقدم له النماذج الجديرة بفنه (٢٢) .

ولدى جان جيونو تحفظات أكثر ، فجيد - في نظره - هو دائما فنان بورجوازي لا يجب تناول عاطفته ازاء العدالة والثورة الاجتماعية بشكل جاد . والمصاعب والاضطرابات التي يتحدث عنها غير حقيقية حسب رأي جيونو : فجيد لم يترك اطلاقا مقعده المريح ذا المسندين (٢٣) .

(٢٢) ايليا اهرنبورغ عام ١٩٢٤ .

(٢٣) مجلة « يوروب » ١٥ تشرين ثان (نوفمبر) ١٩٣٠ .

لكن الامر كان مماثلا في المعسكر الشيوعي لما في الجناح الكاثوليكي ، فقد ذكر لويس مارتن - شوفييه مثلا :

لقد بلغ جيد ذروة عظمته يوم أن التزم . ولقد أطيح بسجله السابق بضربة واحدة : لم يكن التردد في الماضي رفضا كما لم يكن علامة ضعف ، بل حرص شديد لكي يلتزم عندما يستطيع أن يتأكد من التزامه على نحو سليم (٢٤) . وبمناسبة زيارة جيد لجامعة موسكو رفع الطلبة لافتات كتبت عليها عبارة لهنري ياربوس مؤلف رواية « الجحيم » : انه انسان يقف اخلاصه على قدم المساواة مع مواهبه العظيمة . (٢٥)

ومهما تكن التحفظات التي شعر بها اهرنبورغ فدفعته الى أن يتحدث عن انجازه الحقيقي ككاتب ، فقد تحدث باسم رفاق جيد الجدد وهو يقدمه في اجتماع شيوعي :

ان حضور هذا الرجل يملؤنا بكبرياء جميل ، كبرياء سلاح فخور بالقلعة التي قد قوضها في التو (٢٦) .

ولكن اذا كان تعلق جيد بقضية الشيوعية قد حمل اليه وفرة من الاعجاب ، فان انسلاخه عن الشيوعية قبد

(٢٤) اندريه جيد ص ٣٧٥ وما بعدها .

(٢٥) الادب الملتزم ص ١٣٥ .

(٢٦) اهرنبورغ ص ٢٠٥ .

حمل اليه تنديدا اشد . فقد قال جان جيونو « لقد قلت لك » (٢٧) وبعد هذا من ردود الفعل المعتدلة . كما غير اهرنبورغ من لهجته :

... أمام عيني رأيت أندريه جيد وقبضته مرتفعة وهو يتسم لآلاف من العمال الساذجين . واستطيع ان اسمع صوته ... « انني أؤمن بشدة بالجمهوريين الاسبان : ولا أستطيع النوم بسبب التفكير فيهم » . انه أمر مقزز ويدعو الى الاسى . لقد ظلوا بشرة لجسد طبقتهم كدوهامل الفكر الحر وجيد الشيوعي (٢٨) .

وهذه هي نفمة المقال الذي نشره بيير شيز في « الانسان الضائع » في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٦ تحت عنوان مذهب (تصعب ترجمته) : « الماخور الخراب : أندريه جيد » ! الذي اقتبست منه ايفون دافيت هذه الجملة (٢٩) :

« بطبيعة الحال ليس هناك سر في أن اخلاقيات جيد تطالب بأن تعرض اليد التي تداعبك وأن على الانسان أن يبصق في وجه من يعتني بك .

(٢٧) الادب الملترم ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٢٨) الادب الملترم ص ١٩٧ .

(٢٩) الادب الملترم ص ١٤٧ - ١٤٨ .

وبالرغم من أن هناك نقادا شيوعيين آخرين من أمثال أراجون وأندريه وورمس وجورج فريدمان أو رومان رولان قد برهنوا على قدرتهم على الاعتدال في أشكال تقديمهم له، فإن كراهية الشيوعيين لجيد لا مثيل لها (٣٠) .

وجيد يذهب دائما الى أنه لم يتحول أبدا عن قضية الثورة الاجتماعية . أنه ندد بالشيوعية الستالينية لأنه كان مقتنعا بأن ستالين قد خان تلك القضية ، لكنه لم يبحث عن أي حليف في صفوف اليمين السياسي وامتنع عن الهجوم على أولئك الذين لم يتوددوا في شبه طالما أنه يتبين ولسوا أثرا واهنا من الايمان الطيب فيهم . وان تسامحه الصبور في تناول جيونو مثلا أو السندري أوشيز (٣١) لهو مثال صارخ على هذا . ولقد أدى نشوب الحرب عام ١٩٣٩ الى تنحية الجدل السياسي ومع نهاية الحرب خفت انسلاخ جيد عن الشيوعيين .

ولم يتوقف نمو مكانته ككاتب وقبل موته بفترة طويلة لم يعد هناك شك في أنه كاتب كلاسيكي عظيم . وفي النهاية أعرب حتى الكاثوليك الرومان عن أسفهم لنفمة بعض هجماتهم (٣٢) أما الشيوعيون فقد ظلوا وحدهم عنيدون .

(٣٠) سارتر في الازمنة الحديثة آذار (مارس) ١٩٥١ .

(٣١) الادب الملتزم ص ١٣ .

(٣٢) ماسيس : احكام ص ٦٣ .

وعلى أية حال ، فإن الكتب المحدثّة عن جيد التي لا تترك إلا حيزاً بسيطاً للتحاملات الشخصية المختمة (٣٣) ليست معضلة في طابعها أو حتى نقدية للغاية ، فهي دراسات استكشافية تهدف إلى الإيضاح أكثر مما تهدف إلى إصدار حكم بقيمة .

ومما له قيمة بصفة خاصة ذكريات هامة من أصدقائه من أمثال شلومبرجر وروجر مارتن دي جار أو الرجال الأصغر من أمثال كلود موريك ، وهناك دراسات أكاديمية محضّة نجدها في دراسة السيدة أيفون دافيت : « مؤلف (المباهج الدنيوية) » أو دراسة جان ديلاي « شباب أندريه جيد (٣٤) » .

وربما يحظى جيد بأكبر تكريم في عقول خلفائه واتباعه . فالكاتب الذي لقي ظهوره الأول استحساناً من جانب مالارمييه والذي أسماه مالرو في نضجه « أعظم الكتاب الفرنسيين الأحياء » (٣٥) قد حياه في نهاية حياته كل من البير كامو وجان بول سارتر . يقول كامو : « لقد سيطر جيد على شبابي » وبالرغم من سنوات الحرب التي غيرت العالم « لم أنس الامتلاء والضوء اللذين بدأت فيهما حياتي ولست أفضل إطلاقاً أي شيء عليهما . وأنا لم أندد إطلاقاً

(٣٣) بحثاً عن أندريه جيد عام ١٩٥٢ .

(٣٤) ارجع إلى قائمة المراجع .

(٣٥) انظر ليون بيير - كونييت .

بجيد . « (٣٦) .

وفي مجلة « الازمنة الحديثة » تحدث سارتر في آذار (مارس) ١٩٥١ في ما أسماه كامو « البيعة المثالية » عن خليط التدبر والشجاعة الذي رأى فيه المعالم الأساسية لجيد والخصائص التي أفضت به الى « أن يتأني في حكمه الى أن ظهرت الحقيقة جلية وعندما أصبح مقتنعا فأنه أصبح مستعدا لكي يدفع ثمن تلك القناعة لآخر قرش » .

لقد كان جيد في نظر سارتر أكثر من مجرد فنان ممتاز ، فقد ظل طوال ثلاثين عاما يمثل قوة من القوى الحيوية في الحياة الروحية لفرنسا ، ومن ثم فلا يمكن تجاهله .

ان الفكر الفرنسي جميعه طوال الثلاثين سنة الاخيرة مهما كان سندها الآخر هيجل او كيركجورد كان مضطرا الى أن يحدد موقفه (أيضا) بالنسبة لجيد .

لكن جيد يمثل شيئا أكثر من هذا ، وسارتر يعرف هذا :

ان جيد هو مثال لا يمكن استبداله لانه اختار
(ان يكون حقيقته) .

وهذا هو الثناء الذي يودم جيد .

(٣٦) مجلة نوفيل ريفيو فرانسييس بشرين ثان (نوفمبر) ١٩٥١ .

المراجع

مؤلفات جيد

المجلد الاول

مقدمة بقلم ل . مارتن - شوفيه . مقتطفات من :
« التربية العاطفية الجديدة » - مذكرات عن رحلة الى
بريطانيا - مذكرات اندريه والتر (١٨٩١) - اشعار اندريه
والتر (١٨٩٢) - تصدير للطبعة المعتمدة لكتاب « أندريه
والتر » - بحث عن نرجس (١٨٩١) - تجربة حب (١٨٩٣)
مشاهد طبيعية - اشعار - رحلة الى اوربا (١٨٩٣) -
مستنقعات (١٨٩٥) مذكرات ١٨٨٩ - ١٨٩٥ - وقائع ١٨٩٢
- ١٨٩٣ وسائل .

المجلد الثاني

وقائع الطريق - المباهج الدنيوية (١٨٩٧) تصدير
لطبعة ١٩٢٧ - سول (١٩٠٣) تأملات في بعض نقاط الادب
والاخلاق (١٨٩٧) فيما يختص بالمستأصلين من الارض -
ستيفن مالارميه - وقائع - رسائل .

المجلد الثالث

- موبسوس - فيلكتيتس (١٨٩٩) - الحاج (١٨٩٩) -
بروميثيوس مقيدا (١٨٩٩) - رسائل الى انجيل ١٨٩٨-١٩٠٠ -
- تذييل - حول المؤثرات في الادب (١٩٠٠) من يسكرا الى
طاغور - الملك كاندول (١٩٠١) - حدود الفن (١٩٠١)
بعض الكتب - ملحق ، تذييل ، أوسكار وايلد (١٩٠٣)
- صورة المؤلف - مذكرات ١٩٠٢ - رسائل .

المجلد الرابع

- اللااخلاقي (١٩٠٢) - سينورينا ايمانويل - أهمية الجمهور -
(١٩٠٣) - تطور المسرح (١٩٠٤) بيتسابيه (١٩١٢) -
العدول عن السفر - بروسرين (١٩٤٨) أجاكس - توارينخ
الصومعة - أشجار الحور - رد على بحث عن تأثير ألمانيا
- موريس دنيس - نزهة في صالون الخريف - في خدمة
ألمانيا - ج . م . دي هيريديا - الإباحة والتحريمات وبيانات
دي م . السيناتور بيرنجيه - « تجريح » أوسكار وايلد ؛
تذييل - مذكرات ١٩٠٣ - ١٩٠٦ - رسائل .

المجلد الخامس

- عودة الابن الضال (١٩٠٧) دوستوفسكي من خلال
رسائله (١٩٠٨) الباب الضيق (١٩٠٩) بعض الكتب - ملحق -
ضد المارمية - مميزات الآداب - مذكرات ١٩٠٦ - ١٩٠٩ -
- رسائل .

المجلد السادس

القومية والادب - أربع أغنيات - مذكرات ليس لها تاريخ - ملحق - شارل لويس فيليب (١٩١١) إيزابيل (١٩١١) الهاوي دي ريميه جورمو - على هامش فينيدون لجول لاميتير - بودلير وفوجيه - سويسرا بين لفتين - إقرارات « الأخوة كرامازوف » - قضايا - وقائع - مذكرات ١٩٠٩ - ١٩١١ - رسائل .

المجلد السابع

ذكريات في بلاط العزيز - ملحق (١٩١٤) - كهوف الفاتيكان (١٩١٤) فرلان ومالارميه - الروايات الفرنسية العشر - الزحف التركي - تيوفيل جوتييه - تصدير لديوان « أزهار الشر » - وقائع - مذكرات ١٩١٢ - ١٩١٤ .

المجلد الثامن

مذكرات ١٩١٤ - ١٩١٩ مقدمة لـ « تومكيدوانت . . » وقائع - تصدير لرسائل دي دوبوي - رسائل .

المجلد التاسع

السيمفونية الرعوية (١٩١٩) - المباهج الجديدة - تأملات حول ألمانيا - حديث مع ألماني - نظرات في الاسطورة اليونانية - عبرة - أزمة فرنسية - كوريدون (١٩٢٤) -

وقائع غير منشورة - مذكرات ١٩١٦ - ١٩١٩ - رسائل .

المجلد العاشر

اميل فرهايرن (١٩٢٧) - يابايا - رد على بحث عن
الكلاسية - لو لم تمت البذرة (١٩٢٦) مشروع تصدير لكتاب
لو لم تمت البذرة - المباهج الجديدة - وقائع - مذكرات
١٩٢٠ - ١٩٢١ رسائل .

المجلد الحادي عشر

مقابلات - صفحات من دي لافكاديو - صفحات لم
تنشر - تذاكر لانجيل - رسائل صريحة - مصر أوروبا -
تصدير لكتاب « مدام دي بيك » دوستويفسكي : تذييل
(١٩٢٣) مذكرات ١٩٢٢ - ١٩٢٣ .

المجلد الثاني عشر

خصائص (١٩٢٥) مزيفو النقود (١٩٢٦) رسائل .

المجلد الثالث عشر

مذكرات عن مزيفي النقود : ملحق (١٩٢٦) رحلة الى
الكونغو ، ملحق (١٩٢٧) دنديكي (١٩٢٧) وقائع - مذكرات
١٩٢٤ - ١٩٢٥

المجلد الرابع عشر

جولة في تشاد : ملاحق (١٩٢٨) الخطر في أفريقيا
الاستوائية - الساعة الاخيرة - وقائع - مذكرات ١٩٢٦ -
١٩٢٨ - رسائل .

المجلد الخامس عشر

دراسة عن مونتني ، ملحق عن مونتني (١٩٢٩) -
الشباب - ملاحظات عن شوبان - مذكرات ١٩٢٨ - ١٩٣٢ -
تلقيقات - وقائع - رسائل .

مراجع عن جيد

(١) بالانجليزية

آمز : اندريه جيد (١٩٤٧) .
براشفيلد : اندريه جيد والاعزاء الشيوعي (١٩٥٩) .
كروسمان (مشرفا) : الرب الذي فشل (١٩٤٩) .
جيرارد : اندريه جيد (١٩٥١) .
مارش : جيد وصوت السماء (١٩٥٢) .
ماكларن : مسرح اندريه جيد (١٩٥٣) .
اوبرين : صورة اندريه جيد سيرة نقدية (١٩٥٣) .
بينتر : أندريه جيد ، دراسة نقدية وسيرة ذاتية
(١٩٥١) .

ستاركي : اندريه جيد (١٩٥٤) .
توماس : اندريه جيد : اخلاق الفنان (١٩٥٠) .

الدراسات الفرنسية لجامعة ييل : أندريه جيد ١٨٦٩ -
١٩٥١ .

(ب) بالفرنسية (١٩١)

- آرشمبول : انسانية أندريه جيد ، دراسة في السيرة الذاتية والنقد التحليلي النفسي (١٩٤٦) .
بندا : فرنسا البيزنطية (١٩٥٤) .
بريه : أندريه جيد (١٩٥٣) .
ديلاي : شباب أندريه جيد (١٩٥٦ - ١٩٥٨) .
دي بوس : حوار مع أندريه جيد (١٩٤٧) .
فرناندينز : أندريه جيد (١٩٣١) .
هيتيه : أندريه جيد (١٩٥٤) .
لافيل : أندريه جيد ، الرومانتي (١٩٥٤) .
١٩٥١ (١٩٥٤) .
لافيل : أندريه جيد في الصحافة الفرنسية من ١٨٩٠ الى ١٩٥١ .
لانج : أندريه جيد والتفكير الالمانى ١٩٥٤ .
مارتن دي جار : ملاحظات حول أندريه جيد ١٩١٣ - ١٩٥١ (١٩٥١) .
ماسيس : من أندريه جيد الى مارسل بروست (١٩٤٨) .
ماسيس : أندريه جيد (١٩٤٨) .
ماسيس : تأملات حول فن الرواية (١٩٢٧) .
ماسيس : أحكام - المجلد الثاني (١٩٢٩) .

- نافييل : أندريه جيد والشيوعية (١٩٣٦) .
- ريفير : دراسات (١٩٢٤) .
- بير - كنت : أندريه جيد ، حياته وأعماله (١٩٥٢) .
- شلومبرجر : مادلين وأندريه جيد ، ووجوههما المؤتلفة (١٩٥٦) .
- تيري : جيد (١٩٦٢) .
- والش : أندريه جيد وعصرنا (١٩٣٥) .

المحتويات

ص	
٥	(١) مدخل
١١	(٢) أندريه والتر
٢٢	(٣) المباحج الدنيوية
٣٦	(٤) اللا أخلاقي - الباب الضيق
٧٠	(٥) كهوف الفاتيكان
٨٤	(٦) كوريدون
٩٣	(٧) مزيفو النقود
١٠٥	(٨) جيد والشيوعية
١٣٤	(٩) الكتابات الشخصية
١٤٦	(١٠) تعليق ونقد
١٦٢	(١١) مؤلفات جيد

هَذَا الْكِتَابُ

«من الفعل المجاني إلى الالتزام .. من الجنسية المثلية إلى الشيوعية .. من الزواج المستقر إلى التجوال القلبي .. من الدراما إلى المذكرات الشخصية .. في هذا الإطار تكمن المأساة الكاملة لأديب فرنسا العظيم أندريه جيد الذي سعدت العربية بترجمة بعض أعماله ومنها « الباب الضيق » ، « مزيفو النقود » ، « السيمفونية الرعوية » ، « أوديب » ، « تيسوس » .. إنه الأديب الفرنسي الذي أفرد له الدكتور طه حسين الصفحات الكاملات عارضاً لمذكراته وبعض أعماله الفنية التي يلتزم فيها ولكن يظل المغرد ..»

الشمس:

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

أو ما يعادلها

طابع في بيروت - لبنان
طابع في القاهرة - مصر
طابع في دمشق - سوريا
طابع في بيروت - لبنان